

محمد الناصر النفاذوي

فارس، بيزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع



فارس، بيزنطة والجزيرة العربية
من القرن الثالث إلى القرن السابع

محمد الناصر التفزاي

فارس، بيزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع

دار الجنود للنشر - قزوین

© - جميع الحقوق محفوظة لدار الجنوب للنشر

SUD EDITIONS

79 نهج فلسطين، 1002 تونس

الهاتف: 782/991-785/179

ISBN: 9973-703-46-4

التقديم

يتناول هذا الكتاب تطوّر وضع العرب من القرن الثالث الميلادي الى قيام الدولة العربية الاسلامية أي هذه الفترة التي عادة ما يقع طمعها في البرامج الدراسية فيظهر التاريخ العربي وكأنه وليد القرن السابع الميلادي والحال أن أحداث هذا القرن ليست إذا ما نظر إليها بمنظار التاريخ الانساني الضارب في القدم غير أحداث البارحة.

لقد كانت الدول الساسانية والرومانية والحبشية وإن بدرجات متفاوتة هي القوى العظمى طيلة هذه الفترة تمثل أولاها المعسكر الشرقي وتمثل ثانيها باعانة من الحبشة المعسكر الغربي وكان وضع العرب بينها من ناحية وضع التابع لهذه القوة أو تلك ومن ناحية اخرى وضع الشتات المحكوم بالصراع القحطاني العدناني بل بالصراع الداخلي حتى ضمن هذه التصنيفات العربية الفضفاضة مما يمكن معه القول لو كان بإمكان التاريخ أن يعيد نفسه إنه صورة لوضع العرب نهاية القرن العشرين.

غير أن الحروب المتواصلة بين الساسانيين والرومان ثم البيزنطيين انتهت في القرن السابع إلى حالة نزيف ذهب بقوى القوتين العظميين جميعا ورافق هذا النزيف حيرة عقدية رشحتهما الى ما يشبه النزاع الاخير في حين شهد العرب في ذات الوقت ولادة وحدة قومية دينية مكنتهم من ملء هذا الفراغ العالمي فأسسوا لهم دولة عربية إسلامية دامت ثلاثة قرون.

الإشارة إلى أن القارئ سيلاحظ ما من شك في ذلك الاختلاف الواضح بين ما أوردنا من بعض التواريخ وبين ما هو متداول في كثير من الكتب. وسبب ذلك واضح فالفترة موضوع الكتاب مازالت لأسباب عديدة في حكم ما قبل تاريخ بعض الشعوب الأخرى. لذلك عمدنا إلى نوع من "المفاضلة" بين تواريخ تظهر أحيانا في كتابات المختصين (مثال دائرة المعارف الإسلامية) غاية في التباعد.

الفصل الاول

الصحراء المطوقة.

يطلق المؤرخون الغربيون على القرون الثالث والرابع والخامس الرومانية عبارة "الامبراطورية الدنيا" Bas Empire وهي تشبه في الحضارة العربية فترة حكم المطيع والطائع في القرن العاشر المتسمة بتفتت الحكم المركزي وغلبة العناصر غير العربية على العنصر المؤسس للدولة الأصل ولذلك يمكن تعريبها بـ "عصر الانحطاط".

وقد يبرر اتجاهنا هذا النهج في المقارنة أن الفترتين تعدّان فترتي انحطاط عند دعاة القومية الغربيين والعرب على حدّ سواء. وإذا كان هناك اختلاف بين العرب والغربيين حول المسألة فهو يقتصر على الديانين من الطرفين ذلك أن فترة الانحطاط الرومانية مكّنت المسيحية من الانتصار في حين يربط الديانيون المسلمون فترة الاشراف السياسي والديني بثلاثين سنة من القرن السابع الميلادي أي بفترة التحام العروبة بالاسلام التأسيسي التحاماً كاملاً. وما ذلك في نظرنا إلا لطابع الدين الاسلامي الاول الذي يستحيل فيه، رغم أشكال "الاجتهاد" المختلفة الفصل بين الدين والدولة. لذلك سوف نقتصر لاظهار الشبه بين ما يسمى بفترة الانحطاط الروماني والعربي على الآراء القومية عند العرب والغربيين دون سواهم رغم أن القوميين العرب الكلاسيكيين يؤرخون لبداية الانحطاط بحكم المعتصم (833-840). كتب الامير مصطفى الشهابي في أواخر ستينات القرن العشرين:

وغلط المعتصم العباسي غلظته المشهورة فأدخل في جنده عددا كبيرا من غلمان الأتراك فأدى ذلك إلى استبدادهم بالحكم وإلى ضعف الخلافة وضياع سلطان العرب حتى في بلادهم أي البلاد السامية العرق، العربية لسان والثقافة.¹

وكتب سامي الكيالي في الفترة ذاتها:

اختلف الاخوان الأمين والمأمون على الحكم فاستنصر المأمون الفرس على العرب جنود أخيه، وقتلت الأعاجم الأمين (...) وكان المعتصم، "نحو المأمون، يشاهد هذا الانقلاب السريع العجيب ويشاهد تطاول الفرس بعد مصرع الأمين، فراعته أن "تمشي الموسى إلى ذقنه" وهو في ارتقاب الخلافة، ناهيك أنه قد أرضع طبائع الأتراك من أمه التركية حتى نشأ لا يؤمن بالعروبة (...) فرأى أن يشد ساعده بيدي حولته (...) فما أن بُيع حتى أسرع يولف جيشا من المرتزقة الاغراب ولا سيما من الفرغانيين والأتراك.²

أما جان بابيلون J. Babelon، فقد كتب متحدثا عن انحلال الحكم الروماني الاغريقي في القرن الثالث الميلادي عندما ارتقى عرش روما الامبراطور الليبي سيبتيموس سيفرس (193-211) الذي شاركته زوجته السورية الاصل جوليا دومنا Julia Domna (158-217) الحكم:

عندما نرى جوليا دومنا تتخذ لنفسها حاشية من المثقفين وتجادل الفلاسفة يمكننا أن نجزم أن هذه الأفضال العقلية ليست ابتكارا وأنها لا بد أن تكون لها أسس صلبة في رأس ثمرست مدة طويلة على النظر العقلي بفضل البيئة التي عاشت فيها بحيث يمكننا أن تبين الخطوط الأولى لماساة مجالها هذه المواجهة وهذا الصراع بين التقاليد الاسيوية العكرة والغامضة وبين الديالكتيك الاغريقية النيرة التي طعمتها البراغماتية الرومانية. إن هذا هو ما أمكن تسميته ثار الساميين المتأخر من الثقافة الكلاسيكية. إن سوريا جوليا دومنا وهي تتحد بافريقيا سيبتيموس سيفيروس كانت اليد التي حققت هذه الغلبة المشؤومة التي ذهبت نتائجها بامبراطورية أغسطس وتراجان. لقد تعمدت ابنة باسياموس Bassianus العمل بثبات ومثابرة على الجحاز عملية التفكيك متسترة بعظمة الاشرافية الشرقية الغامضة.³

هكذا تحدث قوميان سوريان عن فساد العنصر التركي الاسيوي فنسبا اليه سبب انحطاط العرب وكأنه يكفي أن يتعرض جسد قوي للدغة زنبور أو

1- مصطفى الشهابي، القومية العربية، القاهرة، 1969، ص 37.

2- سامي الكيالي، الادب والقومية في سورية، القاهرة، 1969، ص 66.

3- Jean Babelon: Impératrices syriennes, Paris, A. Michel, 1959, p. 37.

هبة هواء فيموت. وهكذا تحدث قومي غير عربي عن فساد العنصر السوري فنسب إلى امرأة خراب امبراطورية كاملة، وما أقرب هذا التفكير من تفكير من نسب إلى فأر خراب سد مأرب.

إن أخطر ما يعبر عنه الموقفان العربي والغربي هو هذا الحديث عن "هوية" وعن "خصوصية" تشبهان الثوابت أو المعاني المطلقة رغم أن كل شيء في حياة القوم يثبت في كل لحظة تهافت مثل هذه المفاهيم.

إن مصدر هذه المواقف لا يمكن أن يكون غير ردود الفعل التي لا تعرف غير الجُمُوح حتى عندما تتجمل "بالعقلانية". فصاحب كتاب "امبراطوريات سوريات" كان حتى وهو يؤكد على سعة اطلاع "جوليا دومنا" التي مكنتها إما مباشرة أو بطريق المطالعة من النفاذ إلى فلسفة أوريجينوس الاسكندري (186-254) وترتليان القرطاجي (155-222) لا يكف عن حصر مجالها الفكري في دائرة التقبل إذ كيف يقوى عقل "سوري" على الابتكار؟

إن في التاريخ فترات تبدو أشبه ما تكون بحالات الكسر تنهار فيها قيم قديمة ولا تتمكن القيم الجديدة من الاستقرار فيصاب التفكير البشري بالفرع. ففي بدايات القرن التاسع عشر انتجت الحروب النابليونية "فichte" الألماني فكان حرباً على قيم الثقافة الفرنسية ولغتها، وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ظهر من الكتب المؤبنة للحضارة الغربية ما لا يشبهه غير ما ظهر بعد الحرب العالمية الثانية. وفي تسعينات هذا القرن عَقِبَ انهيار المنظومة الاشتراكية حالة من "الفرع" لا يستطيع المرء أن يتنبأ من الآن إن كان بإمكان الانسانية الخروج منها بسلام.

مثل هذه الحالات عرفها القرن الثالث الميلادي فلقد تخشب المجتمع الروماني وتختل إلى حد دفع مثقفي العصر إلى البحث عن بدائل جديدة فاتسع مجال الغنوصية وانتشرت المسيحية أكثر مما كانت عليه في القرنين السابقين. ولم تنج الامبراطورية الساسانية من حالة الشك هذه فظهر النبي "ماني" (قتل عام 276) يدعو إلى دين جديد يعوض المزدية-الزرادشتية. وحول الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الساسانية كان يتمحور أكبر جزء من العالم القديم.

أما على المستوى السياسي فقد غلبت العناصر غير الرومانية على الدولة الرومانية وكثرت حالات سيطرة العسكريين على السلطة، ولم يقتصر الامتزاج على الاجناس فقط حتى يمكن تفسير الانحطاط الروماني عنصريا، بل شمل الدين واللغة أي كل أنشطة الحياة. كتب بابلون حول ذلك:

في زمن أتاح لنا تبين الشروخ الأولى المنبثة بخراب روما نرى في تولي الأفريقي سييموس سيفيروس الحكم ثار الروح السامية القديمة من روما التي داست هذه الروح بالاقدم وردًا من القدر على لازمة كاتون "Dalenda carthago" Caton (ولكم في تدمير قرطاج حياة)⁴.

إن العائلة الليبية-السورية ستحتكر عرش الامبراطورية الرومانية في روما مع ابني سييموس سيفيروس وجوليا دومنا وهما الاخوان الخصمان كاراكالا (211-217) وجيتا (211-212) وكذلك مع ايلاجلابوس Elagabel (الجلبل) (218-222) حفيد جوليا ميزا Julia Maesa أخت جوليا دومنا ومع اسكندر سيفيروس (222-235). كتب فيليب حتي منتصرا لهذه العائلة السورية الافريقية التي حكمت روما طيلة نصف قرن:

تمتعت أم كركلا، واسمها جوليا دومنا بكثير من المواهب والجمال، وهي ابنة رئيس الكهنة في هيكل سامي في حمص. وقد تعرفت إلى زوجها سبتيموس سفروس عندما كان قائد جيش في سوريا. وتظهر على النقود التي صكها سبتيموس في جزء من هيكل. وهذه النقود تشبه تلك النقود التي صكها امبراطور روماني جاء بعده هو فيليب العربي (244-249) الذي كان من أصل سوري وولد في قرية من قرى حوران.

كانت جوليا تفاخر باللقب الذي لقيت به (أوغسطا) أي العظيمة الجلييلة، فراحتم تعاون زوجها في إدارة الحكم، وبعد موته تسلمت دفة الحكم وإدارته بمقدرة فائقة كما أظهرت حنكة في السياسة برزت بها حنكة زوجها وإدارته. وكان عندها مستشار قريب لها اسمه باينان، كان حقوقيا بارزا وأستاذًا للقانون في مدرسة الحقوق في بيروت (بيريتوس). وقد ضمّ مجلس جوليا المؤرخين وطلاب الحكمة وغيرهم من رجال العلم أمثال الطبيب الاغريقي الشهير جالينوس. وبعد وفاتها تسلمت الحكم أختها الصغرى التي فاقتها قدرة، إنها جوليا ميزا، جدة

4- المرجع السابق ص، 59.

ايلاجلابوس، تخليدا لاسم إله سامي في حمص، وجدة اسكندر سفروس الذي ولد في عرقا- لبنان وهو آخر وأعظم مبراطور من هذه العائلة.⁵

ويتحدث بابيلون في غيظ عن آثار هذا الامتزاج الذي لم يقتصر (وهذا أمر طبيعي) على الأجناس بل تعداه إلى اللغة والمثل السياسية والعسكرية حتى ضمن الطبقة الحاكمة:

كانت لغة عائلة الامبراطور الجديد الأم ولغته هو كذلك اللغة البونيقية أي هذه اللغة التي لا تربطها صلة من الصلات باللغة اللاتينية، زد على ذلك أن هذا اللسان ذاته تحرف نتيجة اندماج طويل في الأهالي الليبيين. ولقد أشار سالليست Salluste عند حديثه عن يوغورطة إلى هذه اللغة المحلية المصطبغة بالبربرية. ومن ناحية أخرى فإن سيفيروس قد يكون صرح اثر احتفال أقيم على قبر حنبعل الذي بنى عليه حسب زيتريس Tzetzes نصبا من الممرر تخليدا "لأعظم رجل حرب في العصور القديمة"، أنه يعتبر نفسه تجسيدا للقائد القرطاجي الذي تكفي ذكره وحدها لإثارة هلع الجمهورية.⁶

فالاختلاط الجنسي واللغوي والفلسفي إنما كان نتيجة توسع دولة كان الحكم فيها محصورا في نواة عرقية ضيقة ثم أصبحت أطرها القديمة عاجزة عن استيعاب وتأطير هذا التوسع. كذلك سيكون وضع القرشيين من بني هاشم وعبد شمس يوم تبتلع دولتهم العربية الاسلامية أكثر مما كان بإمكانها أن تتمثل من أجناس ولغات وفلسفات. فما يسمى بالانحطاط الروماني في القرن الثالث والانحطاط العربي الهاشمي -العبشي بعد ثلاثة قرون من قيام الدولة العربية الاسلامية إنما هو أمر طبيعي.

على أن أهم ما يمكن أن يدحض رأي القائلين أن العامل الخارجي ممثلا في غلبة أجناس أجنبية على الأمم هو سبب انحلال الدول لا إحدى نتائج هذا الانحلال هو تجربة الدولة البارثية التي أسسها مهرداد Mithridate الأول في القرن الثاني قبل الميلاد. وستسقط بعد حكم دام أربعة قرون تحت ضربات أردشير الساساني في الثلث الأول من القرن الثالث (224). لقد قامت هذه

5- فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، بيروت 1975، ص 175.

6- بابيلون، المرجع السابق، ص 60.

الدولة في خراسان⁷، ولذلك يطلق عليها بعض المؤرخين اسم الامبراطورية البارثية (L'empire parthe) ثم توسعت في فترة ما فهيمنت على الهضبة الايرانية جميعها الموزعة اليوم سياسيا إلى الدول الثلاث فارس في الغرب وافغانستان في الشمال وغرب باكستان في الجنوب الشرقي أي ما يسمى بـ"بلوشستان"⁸.

هذه الدولة بدت في الثلث الأول من القرن الثالث أشبه ما تكون بالجسم المفكك الأوصال يتقاسمه الاقطاعيون ورجال الدين المجوس. ولولا الضعف القاتل الذي كانت عليه الامبراطورية الرومانية في هذه الفترة لأمكنها أن تذهب بخصمها القديم. ففي السنة التي كان فيها كاراكلا في روما يجهز على أخيه وشريكه في الحكم جيتا (212)، كان أردشير، حفيد ساسان وابن بابك Pabghah الذين انفرد بيتهما بوظيفة كبير القائمين على خدمة معبد النار باصطخر، يتمرد على ملك مقاطعة اصطخر ويضم إليه شيئا فشيئا مقاطعات ملوك الطوائف المجاورة ليتغلب في نهاية هذا المطاف السياسي الديني على ملك ملوك الطوائف نفسه، أردوان الخامس سنة 224 ويؤسس دولة ساسانية لن تتمكن من القضاء عليها بعد عمر امتد خمسة قرون غير الدولة العربية الاسلامية.

إن حالة التحلل الداخلي التي وصفنا لم تكن محصورة في القوتين العظيمين الشرقية والغربية لذلك العهد بل كانت تشمل العالم القديم جميعه ومن ضمنه بلاد العرب الواقعة بين المطرقة الايرانية والسندان الروماني والتي إذا كانت تتحدد جغرافيا بـ"العربية"، فهي سكانا وأنماط عيش لا يمكن أن تفهم إلا باعتماد التصنيف السسيولوجي (بدو/حضر) الذي ليس في نهاية التحليل غير تعصير للتصنيف السلالي التقليدي عدنان/قحطان.

يقول ابن خلدون الكندي القحطاني في الصنف الأول منهما:

7- تعني بالفارسية الشرق (Khvarasan) أما الغرب فهو (Khvarvaran)

8- Raymond Furon, : Iran, Perse et Afghanistan, Paris, Payot, p. 5.

وكانت قبائل مضر مع ذلك بل وسائر العرب أهل بغى والحاد وقطع للأرحام وتنافس في الردى واعراض عن ذكر الله فكانت عبادتهم الأوثان والحجارة وآكلهم العقارب والخناس والحيات والجعلان وأشرف طعامهم أوبار الابل إذا أمّرها في الحرارة والدم.⁹

إن هذه العلاقات الاجتماعية (البغى وقطع الأرحام والتنافس في الردى ورواد البنات) قد عبر عن روحها شاعر ينتمي إلى هذا الصنف هو زهير بن أبي سلمى الرياحي بقوله:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

لقد كانت تلك العلاقات علاقات أقوام لم تتمكن بعد، على عكس ما كان عليه الايرانيون والرومان وحتى القحطانيون، من بلوغ طور نشوء الدولة بما يلائم مثل هذا القصور من نظرة إلى الأشياء تتسم بالتجزؤ البالغ (عبادة الأوثان والحجارة التي يوافق عددها تعدد القبائل تماماً كما يوافق الوجدانية بمراحلها المختلفة تقلص القبلية ومركزية متزايدة للدولة) لأن بيئة القوم المادية لا تسمح لا بنشوء الدولة ولا باقامة علاقات اجتماعية على غير ما عرفوا منذ أقدم العصور. ولذلك فلن يكون للعنانيين شأن إلا يوم يتدلون مع قيام الدولة العربية الاسلامية، التي كانوا أكثر الناس ضراوة في محاربة دعائها، بيئة بيعة ويتحولون من بيئتهم الأصلية إلى بيئة جديدة (الشام وبلاد الرافدين، الخ) فيكون في ذلك بدؤهم ونهايتهم. ومن لم يفعل ذلك منهم فقد بقي حتى نهاية القرن العشرين على ما كان عليه أجداده قبل قيام الدولة العربية الاسلامية. أما عن الصنف الثاني أي القحطانيين فقد كتب ابن خلدون:

ولم يكن في العرب ملك إلا لي آل المنذر بالحيرة للفرس وآل جهينة بالشام ولي بني حجر (من كندة) على مضر والحجاز.¹⁰

ويفسر المحصار الملك قبل قيام الدولة العربية الاسلامية في القرن السابع في القحطانيين بنوع الحياة التي كانوا يحيون. وهي إن لم تكن مناقضة مناقضة تامة

9- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، ج 3، بيروت 1977، ص 104.

10- المرجع السابق، ص 704.

لما وصف من حياة العدنانيين¹¹ (لاستحالة التناقض المطلق في كل ما يمت بصلة إلى حياة البشر المتجاورين خاصة) فهي أقرب إلى الاستقرار في الأرض بكل ما يعني ذلك من توفر ظروف نشأة الدولة أو على الأقل بذورها الأولى وما يتبع ذلك من مؤسسات يصعب الحديث عنها عندما لا يتوفر حد أدنى من ظروف الحياة المادية.

هكذا يبدو وضع القحطانيين شائكا إذ هم أكثر حضارة من العدنانيين لذلك ملكوا عليهم، وهم أقل حضارة من الأمم المجاورة لذلك قاموا بدور الحزام الواقعي لهذه الأمم من غزوات من سيصبحون "أخوتهم" منذ هجرتهم إلى المدينة القحطانية واحتلاط المهاجرين العدنانيين بالانصار القحطانيين.

لقد كان أردشير وهو يوسّع إمبراطوريته يلامس في الآن نفسه المنطقة العربية الخطيرة التي كان الرومان قد ضمنوا فيها منذ مدة ولاء الإمارة التدمرية. أما أردشير فلم يكن له فيها ولاء عربي مضاد يحقق التوازن بين المعسكرين قريبا من مصب دجلة "الذي كان يهيمن عليه إذاك عرب جاؤوا من عمان هم الرواد الذين مهدوا الطريق للقبائل العربية التي ستستقر في الحيرة غرب الفرات على ما يبدو عند نشأة الدولة الساسانية بالضبط"¹². نقول ستستقر لأن أردشير سيرى في هولاء العرب اليمنيين وسيلة يمكن أن تقي حدود الإمبراطورية الساسانية من غزوات البدو في نجد والخليج:

نشأت حوالي هذه الفترة في ما وراء نهر الفرات الذي يتجه في هذه المنطقة نحو دجلة ويقرب منه حتى مسافة 50 كلم تقريبا مملكة عربية خاضعة للإمبراطورية الساسانية هي مملكة الحيرة التي ستصبح سورا يقي الإمبراطورية من غزوات البدو الرحل¹³.

هذه الإمارة كانت تحتاج للقيام بدورها إلى عون من القبائل في المنطقة فتخيرت لها من ضمنها بني يربوع وأسندت لهم وظيفة الردافة:

11- المرجع السابق ص 524.

12- Christensen, Arthur: L'Iran sous les sassanides, Copenhagen, 1936, p. 82.

13- المرجع السابق، ص 90.

إن وظيفة الوزير (الرديف) في مملكة الحيرة قد تكون إرثا في عائلة بني يربوع تعويضاً لها عن التنازل عن المطالبة بعرش الحيرة. وبهذا يكون النظام لايرني قد تجاوز الحدود المعقولة وما كان ذلك ليحصل إلا في دولة صغيرة كدولة الحيرة تقع تحت رقابة امبراطورية كبيرة وفي حمايته¹⁴.

ولقد كان منصب الردافة هذا بما يوفره من مكانة اجتماعية "لليرابيع" من ثميم ومن منافع اقتصادية حرياً بأن يربط بني ثميم الخليجين باللخميين برباط وثيق:

فالرديف يجلس على يمين الأمير إذا شرب ويردفه إذا ركب ويخلفه إذا غزا. وكانت له أتاوة على كل من في طاعة الأمير. وكان بنو يربوع التميميون يفخرون بأنهم أرداف الملوك.¹⁵

هكذا تفتنت السياسة الساسانية منذ قيام الدولة الجديدة في الثلث الأول من القرن الثالث إلى الخطر العربي الكامن فمنح أردشير القبائل الأزدية واللخمية النازحة من اليمن إلى الحيرة التي كانت تخضع للحماية التدمرية "استقلالاً ذاتياً تالفا للعرب وتأميناً لسلامة بلاده التي كان البدو لا يفتأون يشنون عليها وعلى القوافل التجارية غاراتهم. ومن ثم تحولت المخيمات إلى الحيرة مدينة العرب يقوم عليها جذيمة الأبرش (التنوخني) كأمر نائب عن الملك الفارسي أردشير"¹⁶. وبذلك ربط الساسانيون اللخميين برباط ولاء دائم ونظموا علاقاتهم بهم تنظيمًا محكمًا فكان تاج الإمارة للخميين ومنصب الرديف (الوزير) إرثا في بني يربوع. أما البحرين التي ستضم إلى الامبراطورية الساسانية زمن سابور الثاني (310-379) فسيحكمها حاكم عربي يعينه ملك الحيرة على أن يستعين بأحد كبار الموظفين الساسانيين. ويقوم في البلاط الساساني بصورة دائمة مكلف بالشؤون العربية وبالترجمة يتقاضى مرتبه من ملوك الحيرة¹⁷.

14- المرجع السابق، ص 104.

15- أحمد مختار النجار، علاقة امراء الحيرة بعرب شبه الجزيرة كما يصورها الشعر، القاهرة 1979، ص 85.

16- المرجع السابق، ص 26.

17- christensen، المرجع السابق، ص 130.

إن هذا الارتباط السياسي التنوخي (أزد-لخم) ومن ثم التميمي بالساسانيين هو الذي يفسر استقرار الملك في هذه القبيلة العربية القحطانية منذ عهد أردشير في القرن الثالث إلى عهد كسرى أبرويز الذي سيقتل النعمان بن المنذر في مطلع القرن السابع الميلادي وهو الذي يفسر استماتة اللخميّين في الدفاع عن أولياء نعمتهم من الساسانيين.

هذه السياسة الساسانية التي تتمثل في اتخاذ العرب القحطانيين ردعا واقيا للحدود الساسانية لم تظهر نجاعتها قبل الثلث الأخير من القرن الثالث بسبب نمو دور مملكة تدمر الطموحة. فقد بلغ من شأن هذه الإمارة (المملكة) أن استغلت فترة انتقال الحكم في إيران من أيدي البارثيين إلى أيدي الساسانيين وما صاحبها من صعوبات داخلية وكذلك وضع الرومان الصعب في النصف الأول من القرن الثالث ليبيدي أميرها أذينة سيتموس (قتل عام 267) طموحه إلى الاستقلال بمنطقته وتوسيعها. وعندما اندلعت الحرب بين سابور الأول (241-272) وفاليريان (253-260) سنة 260 وانتهت بغلبة سابور وأسر الأمبراطور الروماني في مدينة الرها، انضم أذينة إلى الرومان واعترض طريق عودة سابور وألحق به هزيمة ثقيلة وأجبره على التراجع حتى ما وراء الفرات وسيطر على نصيبين وسوريا وكلّ المناطق الرومانية في آسيا الصغرى فمنحه الامبراطور غاليان (253-268) لقب "الثاني" في الشرق لقاء تبعية شبه صورية لروما ولن تنجح محاولات الساسانيين حتى سنة 265 في الفت من عضد تدمر. إن أذينة سيقتل سنة 267 وقد يكون لزوجته باث زيينا (زنوبيا عند الرومان والزباء عند العرب ومعنى ذلك عند البعض ابنة العطاء وعند البعض الآخر ابنة التاجر) ضلع في قتله، وستتولى زنوبيا الحكم مشركة ابنها "وهب اللات" في تسيير شؤون الإمارة فيتلقب هو بلقب أغسطس إعلانا منه عن الاستقلال التام عن روما (271) وتعتد أمه حلفا مع سابور فيثيران غضب الامبراطور الروماني الجديد أورليان (270-275) فيهجم بقواته على تدمر ويأسر الملكة لتحمل إلى روما فتموت بعد عام من الهزيمة (274).

كتب فيليب حتي عن زنوبيا بلهجته التمجيدية كلما تعلق الأمر بالعرب الشوام
خصوصاً:

قبضت على زمام الحكم بيد من حديد فنظمت البلاط على نمط بلاط ملوك الفرس
وأحاطت نفسها بكل مظاهر الالهية والجمال وأدّعت أنها تمت بصلة النسب إلى
شبهتها كليوباترة المصرية. لقد تعهدت زينوبيا الحضارة الاغريقية ورعت اللغة
اليونانية التي درستها على يد أستاذ فيلسوف شهير اسمه لوبجينوس الذي أصبح فيما
بعد مستشارها. وبعد أن بسطت سلطتها على جميع أنحاء سوريا وشمال الجزيرة
العربية والجزء الشرقي من بلاد ما بين النهرين، حشدت جيوشها ووجهتها نحو
مصر، حيث أقامت في مدينة الاسكندرية حامية تدمرية ثم أجهت نحو الاناضول
وتوغلت داخل البلاد إلى أن بلغت أنقرة. وفي نشوة انتصاراتها أعلنت إلغاء الوصاية
الرومانية على بلادها وأعلنت استقلال مملكتها استقلالاً تاماً ولقيت نفسها
بالعظيمة "أوغسطا"¹⁸.

لقد خلف سقوط تدمر سنة 273 فراخاً كبيراً كان لا بدّ أن يملأه
كيانات سياسية قحطانية بديلة ولذلك فقد شهدت المنطقة جميعها قيام توازنات
جديدة. ففي جنوب الجزيرة تأسست في اليمن الدولة السبئية الثانية حول الملك
(شهر يهرعش) بين 274 و 310 الذي تلقب بملك سبأ وذو ريدان
وحضرموت ويمنة رمزا منه إلى توحيد مجموعة الامارات اليمنية المتناحرة
وتصدّياً للحبشة التي تعاقبت غزواتها لليمن بداية من عام 281. أما اللخميون
فكانوا أكبر المستفيدين من انهيار تدمر.

لقد ناصر اللخميون الساسانيين في حربهم ضد أذينة سنة 260 وإذا
كان الساسانيون قد منوا بهزيمة في هذه الحرب فإن الحيرة فقدت مؤسس
الامارة فيها جذيمة الملقب بالأبرش. وعندما خلفه في الحكم ابن اخته عمرو بن
عدي (260-273) كانت فكرة الثأر من التدمريين شاغله الأول وها هي تدمر
تسقط في أيدي الرومان الذين حولوها إلى أثر بعد عين في الوقت الذي ملك
فيه في الحيرة امرؤ القيس بن عدي (274-328) هذا الذي مد سلطانه مستغلاً
الفراغ على مناطق شاسعة تمتدّ من الحيرة إلى نجران كما أثبت ذلك نقش على

18- فيليب حتي: خمسة آلاف سنة... ص 180.

لوحة قبره فوق جبل الصفا قرب دمشق عثر عليه المستشرق الفرنسي رينيه سنة 1921 وهذا نصه بالنبطية نقلا عن الحجار:

تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر الشج وملك الأسدين ونزر وملوكهم وهرب مذ حججو عكدي وجا بزجي في حجج فخرن مدينست شمر وملك معد ونزل بنيه الشعوب وؤكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه عكدي، هلك سنة 223 يوم بكسلول بلسعد ذو ولده.¹⁹

وسنة 323 بتاريخ مدينة بَصْرَى توافق 328 للميلاد. هذا النقش يسمى نقش النّمارة وهو يفيد انه حاصر نجران عاصمة شمر السبئي كما أنه ملك العرب كلهم وخص أسدا ونزارا وملوكهم بالذكر ليفيد اتساع ملكه وقوة سلطانه التي أخضعت قبائل معد وبعض قبائل الجنوب إلى جانب محاصرته نجران، وكان عليه أن يوزع بنيه لملك هولاء وقد فخر بأنه لم يبلغ ملك مبلغه²⁰

إن ما يجب ملاحظته هو أن هذا الأمير اللخمي سينضمّ لأسباب لا إجماع عليها إلى الرومان ضدّ الساسانيين فتفقد هذه العائلة العرش لمدة غير محددة مما أحاط بتاريخ اللخمين في القرن الرابع بالغموض. على أن ذلك لا يغيّر من الصورة العامة للمنطقة وهي صورة الجزيرة العربية المطوقة بقوتين واحدة قحطانية والأخرى إما ساسانية أو رومانية وفي أحشائها كانت القبائل العدنانية أساسا لا تعرف للوقائع الحربية بداية ولا نهاية.

19- النجار، المرجع السابق، ص 28.

20- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الفصل الثاني

أزمة الضمير في الشرق والغرب حتى سنة 313.

حكم أردشير الأول، مؤسس الدولة الساسانية (224-241) وابنه وخليفته سابور الأول (241-272) إيران مدة تقارب النصف قرن واعتمدا في حكمهما على مركزية صارمة ودين للدولة هو المزدية يجمع كل حيد عنه. هذه المركزية السياسية وهذه الطاعة الدينية تعبران عن المرتبة الاجتماعية التي رأى فيها الحكم الساساني الجديد أساسا للمجتمع الإيراني والتي تتكون كالتالي:

- 1- كبار رجال الدين المجوس (Magiens) ومن هنا أطلق المسلمون على المزدية اسم المجوسية.
- 2- العسكريون من الفرسان لا من المشاة الذين هم من أصل قاعدي.
- 3- الكتاب.
- 4- الفلاحون والصناع.¹

لقد كان المجوس يمثلون القادة الروحيين للمجتمع الإيراني والحفظة اليقظين لدين الاله "هرمزد" (مزده) كما حدده زرادشت النبي الأفغاني الأصل في القرن السابع قبل الميلاد في الكتاب المقدس (Avesta) الذي يسميه المؤرخون العرب "كتاب الزمزمة" وفي ما أضيف إليه من شروح وتفسير (Zand) وهو الزندة عند العرب.

Christensen, L'Iran sous les Sassanides, p: 93.- 1

غير أن وظيفة كبار رجال الدين لم تكن تقتصر على الجانب الديني فحسب بل كانت تتعداه إلى تعليم أبناء الطبقات العليا عقائد المزدية ونسوع السلوك الذي يجب أن يسلكوا. كل ذلك انطلاقاً كما ذكرنا من الكتاب المقدس (أفستا) وشروحه اللذين كانا يعتبران المصدر الأوحى لكل علم وسلوك.

لقد كان المجوس يضطلعون بدور أساسي في المجتمع الإيراني لا يكاد يضاهيه إلا دور الفرسان النبلاء الذين كانوا يكوّنون نواة الجيش الإيراني الصلبة ولا يتلقون للقيام بوظيفتهم لا راتباً ولا عداً إذ كانت صفة الفارس وحدها علامة نبيل في هذا المجتمع المتعلق بالمرتبة إلى حدّ أن القوانين فيه كانت "تمنع على أفراد الشعب شراء ممتلكات النبلاء"²، وتفرض على النبلاء مظاهر تميّزهم عن العامة "في المراكب والملابس والمساكن والحدائق والنساء والخدم"³.

لقد كان المجوس وطبقة النبلاء الاقطاعية يمثلون دائماً في هذا المجتمع مثالا للحمية المصلحة الطبقية. ولقد حرص منشئ الدولة الساسانية الجديدة على أن يبقوا على هذا الوضع بل أن يدعموه أيما دعم ثقة منهم على الأقل في هذه الفترة بقوة دولتهم. غير أن مثل هذا الوضع جعل كل ثقل الدولة وحاشيتها يقع على كاهل القاعدة الاجتماعية المكونة من الفلاحين أساساً والذين عليهم:

- 1- أن يخدموا الأرض ولا يقربوا ثمارها قبل أن تطاها يد الضرائب الطويلة.
- 2- أن يحاربوا تحت إمرة الفرسان الاقطاعيين حتى وإن كانوا دائماً في حالة أجمع المورخون القدماء على أنها كانت مثالا للتعاسة.
- 3- أن يدفعوا الضرائب التي كان القانون يعفي منها النبلاء والفرسان ورجال الدين والكتبة وكل من هم في خدمة الشاهنشاه.

إن المجتمع الذي ارتضاه مؤسسو الدولة الساسانية هو مجتمع يرى في الطاعة أساس الفضيلة ويرى في قبول المرء بمكانته الاجتماعية الموروثة مقياساً للصالح. ومثل هذا الوضع لا بدّ للإبقاء عليه من دين يمثل الأساس النظري والفلسفي له

2- المرجع السابق، ص 313.

3- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ويضيف عليه صفة الشرعية الآلهية. وهنا لا يخفى دور المزدية التي حرص أردشير على أن يجعل منها ديناً رسمياً للدولة الساسانية المترامية الأطراف في تنتين مركزية الدولة الناشئة.

فالدين المزددي يتمحور حول إله كوني غير مخصوص بشعب من الشعوب، محال لأنه سابق لكل المخلوقات، خيّر لأنه لا يمكن أن يصدر عنه الشر. وتبعاً لذلك فكل تجليات هذا الإله الخيّر كالهواء والنار والنور والماء والمعادن يجب أن تحظى بالتقديس.

إن تأثير المزدية بـ "شمش" البابلي يبدو واضحاً من خلال تقديس بعض عناصر الطبيعة التي ذكرنا وكلها عناصر ترتبط بالشمس ولذلك فهي ضرورية لحياة الإنسان على الأرض فتقديسها إنما هو في نهاية الأمر تقديس للنخشب والحياة (أي الخير) ودفع للموت المشوش للحياة والذي يرمز إليه بـ "الظلام" لا في المزدية فحسب بل في تراث شعري يمتد إلى اليوم في مختلف الحضارات. غير أن عناصر الطبيعة الخيرة لا توجد على الأرض صافية بل في حالة اختلاط وتلوّث وهذا يعني أن المزدية لا تعتمد أي ثنوية في تفسير الأشياء كنسبة الخير إلى السماء والفساد إلى الأرض والصفاء إلى الروح والكدر إلى الجسد أي هذه الثنوية التي ستوقع الفلسفة والديانات التي تبناها في تشاؤم قاتل. فهي ترى مثلاً في الزهور التي تنبت في الأرض عناصر من السماء كالماء والنور ومن هنا كان الواجب الأسمى عند المؤمنين أن يقاوموا عناصر الفساد والظلمة التي تلوّث كل شيء في الطبيعة والإنسان تغليباً لعناصر الخير والنور. ويوم تتغلب عناصر الخير والنور فذاك هو يوم الخلاص. وأما قيمة الإنسان فهي تتحدد بمقدار سعيه إلى تغليب أحد طرفي الصراع على الطرف الآخر. نحن إذاً لسنا بإزاء ثنوية تقوم على تضاد كليّ ومتعادل بين الخير والشر إذ أن هر مزد فوق كل شيء وإذاً أن عناصر الشر والخير والظلام والنور والفناء والخلود مبعثرة في كل شيء فلا مجال للقول عند المزديين أن الأرض مصدر كل شرور وأن العالم الأمثل في السماء إذ في الأرض الظلمة والنور على حدّ سواء. هذا هو الفرق بين المزدية والثنوية المانوية والغنوصية عموماً. إذن نحن إزاء دين لا يقود إلى التشاؤم حتماً ويرفض

التزهد لأن في الزهد موقفا رافضا للحياة والحال أن في الحياة جانبا من النور يجب تعزيزه. نحن إزاء دين عليه أن يبدل جهدا تجريديا أكثر حتى ينزع عنه قدرا أكبر من المادية ليلتحق بالديانات الأخرى.

لا شك أن القضية التي تستعصي على الفهم هي مكانة الروح الشريرة التي تبث الفساد والظلام في الكائنات. إن هذه الروح الشريرة لا ترقى إلى مستوى الإله لأن هرمزد وحده هو الله كما أنها ليست منه لأنه آله خير، وإذن فما مصدر هذه الروح؟ هنا لا تجيب المزدية عن هذه المسألة بالوضوح المطلوب بل تكتفي بإقرار مخالطة الظلمة لكل شيء (وكأنها تكتفي بملاحظة ما يحدث في الكون) وتكتفي بالدعوة إلى مقاومتها نصرة للروح الخيرة التي مصدرها هرمزد.

إن المزدية وهي تؤكد على فكرة تواجد الخير والشر معا على الأرض تبرر اقتصاديا وسياسيا الملكية وتبتعد إنما ابتعادا عن المسيحية التي تفصل بين مملكة قيصر ومملكة الله. ولأن المزدية تبرر شرعية الحكم على الأرض بما فيه من مرتبة صارمة، فقد اضطرت تبعا لذلك إلى تعديد القيود الاجتماعية والدينية فأصبحت الطقوس التي يجب على المؤمن المزدية أن يراها كثيرة بل مكبلة. فعليه أن يبذل جهدا كبيرا حتى لا يلوث العناصر الخيرة من هواء ونار ونور وماء. وهكذا فهو لا يحرق الموتى لأن في حرقهم تلويثا للهواء وللنار على حد سواء، ولا يدفنهم لأن في ذلك تلويثا للأرض وإنما يترك جثثهم العارية نهبا للطيور الجارحة.

إن الأمر يصل عند المزدية إلى حد اعتبار الاستحمام بالماء الساخن واحدا من الآثام إذ تحرّم هذه الديانة تلامس (تماس) الماء والنار بل أن في الاستحمام بالماء ذاته إثما إذ أن هذا العنصر المقدس يتلوث بلمس الجسد. وفي هذا نظم الشاعر الحلبي أبو العلاء المعري مستغريا من لا عقلانية الأديان:

عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه بهول البقر.

إن حياة المزدية تبدو إذن مقننة لا شيء فيها يترك للصدف أو الاجتهاد:

فعلى المؤمن المزدني أن يصلي للشمس أربع مرات في اليوم وعليه أن يصلي للقمر وللنار والماء. عليه أن يقيم الصلوات عند النوم وعند القيام وعندما يغتسل ويتمنطق (أي يشد نطاقه) وعندما يذهب لقضاء حاجته، وعندما يعطس وعندما يقص شعره وأظفاره وعندما يشعل قناديل، الخ. عليه أن يحرص حتى لا تنطفئ النار في المنزل وحتى لا يسقط ضوء الشمس على النار وحتى لا يلامس الماء النار وحتى لا تصدأ المعادن إثر المعادن مقدسة. أما الإجراءات الضرورية لطهارة من لمس جثة أو امرأة في فترة الحيض أو في حالة ولادة وخاصة إذا أجهضت وليدها فهي على غاية من الأرهاق والأزعاج.⁴

إن الظاهرة الأكثر تعقيدا في هذا الدين الذي يكاد يخلق معتنقيه - في نظرنا اليوم على الأقل - بما قنن من مرتبة وما ضبط من طقوس تهيمن على حياة المؤمنين، هي العلاقات الجنسية بين الأقارب.

لقد كان المجتمع الإيراني مجتمعاً يعدد فيه الذكور الزوجات ويقنن مراتب كل واحدة منهن في العائلة وهذا أمر يكاد يكون طبيعياً في المجتمعات القديمة ولكن الدين المزدني يقر بالزواج بين الأب وابنته وبين الأم وابنها وبين الأخ وأخته بل أنه يبيح للرجل الزوج أن "يقرض إحدى زوجاته لرجل آخر من دينه إن لحقه عوز اضطراري"⁵. وقد لا يكون هناك تفسير لهذه الظاهرة إلا في معاداة المزدية لكل أشكال العزوبة التي ليست في نظرها مظهراً من مظاهر الحياة بل هي مرادف للقحط وبذلك تدخل ضمن الصفات التي تمثلها الروح الشريرة، روح الظلمة. إن المسيحيين المعاصرين للدولة الساسانية والذين لجأ البعض من مفكريهم إلى وجع نفسه قتلاً للغرائز الجنسية فيه⁶، وكثيراً منهم إلى العزوبة إخلاصاً منهم لدين المسيح، سوف يستهجنون أيما استهجان سلوك المجوس الجنسي وكذلك سوف يفعل المسلمون بعد أربعة قرون. ولكن القضية تحتاج إلى فهم ينطلق من دين المجوس ذاته ذلك أنهم قد اشتهروا بالاستماتة في الحفاظ على صفاء الدم الإيراني فما تفسير سلوكهم الجنسي إن لم يكن موافقاً لهذا التفسير الذي قدمناه؟

4- Christensen ، المرجع السابق ص 116.

5- المرجع السابق، ص 324.

6- مثال على ذلك أوريجينوس (186-254)

إن المزدية خلافا للثنوية المانوية والغنوصية عموما ترى في عالم المادة وفي الأرض بصفة خاصة صراعا بين قوى النور والخصب والعطاء من ناحية وقوى الظلمة والجفاف والقحط من ناحية ثانية. وخصب الأرض الذي لا يختلف عن خصب الجسد هو غاية نشاط الفلاح الايراني الذي عليه أن يقلص عنصر الجفاف الذي يمكن أن يتلفها بل ان قبول الفلاح بدوره كمجرد وسيلة لاحتساب الأرض (مفهوم الطاعة) هو ضريرته من أجل الخلاص وطريقه إلى عالم النور والخلود.

هكذا تتجلى قيمة المزدية في تركيز الفلاح في الأرض ومدها بعدد متزايد من الخدمة ضمن مفهوم للطاعة يبقى على المرتبة الاجتماعية والسياسية ولسوف يعتبر النبي "ماني" في الثلث الأخير من هذا القرن وهو يدعو إلى مانوية ثنوية فيها الكثير من ملامح المسيحية، عنصر تخريب للدولة ونظام المجتمع فيه فيجمع الجوس على امتحانه فيقتل سنة 276.

كانت عائلة "ماني" الهمدانية الارستقراطية الأصل قد استقرت في قرية تقع بين دجلة والفرات وينشط فيها إضافة إلى أتباع الدين المزددي السني، الديانيون المسيحيون والغنوصيون على حد سواء. وقد أحس ماني (215/216-276) وهو يعاشر كل هذه الأديان أنه لا بد من تحديد ديني يأخذ من الزرادشتية ما يأخذ ويأخذ من المسيحية ما يأخذ. وأحس أنه النبي المنتظر المدعو إلى تحقيق هذه الرسالة. هذا الاحساس تم كما كان يتم في كل الأديان بطريق الحلم أو الوحي إذ لا بد من رابطة بين الله والسماء وبين النبي والأرض وليس بإمكان مثل هذه الرابطة أن تنزل إلا خارج ما هو "طبيعي" و "عادي" وبواسطة ملك سماه ماني "الرفيق"⁷.

وهكذا بدأت دعوته فدعا الناس إلى الإيمان به على أنه الروح القدس (Le Paraclet) الذي تنبأ المسيح بظهوره وبرر ذلك "بأن أنبياء الله كانوا دائما هم حملة الحكمة يظهرون للناس من زمن إلى آخر فكان بوذا للهند وكان زرادشت

7- Christensen المرجع السابق، ص 177.

لفارم وكان المسيح للغرب وها أني أنا ماني نبي إله الحقيقة أحمل في هذا الزمن
الأخير رسالة الوحي وأبعث في بلاد بابل⁸.

يمكن القول ان المانوية تقوم على الايمان أن "المبدأين الأصليين هما الله
والحركة الفوضوية"⁹ التي تحكم العالم. فالله هو المبدأ الخير كما أن الشر هو
هذه الحركة الفوضوية. وبما أن الله خير فهو يتدخل لاعادة النظام إلى الحركة
الفوضوية. هذا التدخل يقع بوسيلتين وعلى مرحلتين: فالله يبعث أول الأمر
بروح منه إلى العالم. ولكن هذا الاختلاط يُنسي الروح أصلها ومصيرها فإذا
هي أسيرة المادة. على أن حالة السقوط هذه ليست حالة نهائية فالروح في حالة
بين الحالتين: حالة الأسر والنسيان وحالة توقي كامن إلى الخلاص من هذا الأسر
ولذلك فإن الله يبعث هذه المرة بقوة إنقاذ صادرة عنه (demiurge) تلامس
الروح الالهية الغافية في الانسان فتستفيق من غفوتها وتختار الاندماج في العالم
العلوي الأصلي وبذلك يتحقق نصر الخير ممثلاً في الله وفي الروح المنقذة وفي
الروح التي خلصت لطبيعتها الأولى بعد حالة الاختلاط على الشر ممثلاً في
الجسد والأرض.

من الواضح إذن أن المانوية تشبعت بقراءة معينة للمسيحية. يظهر ذلك
حتى في التثليث الذي وصفنا وإذا كان يطلق عليها صفة الثنوية والتثنية فذلك
لمقابلتها بين الأرض والجسد والطبيعة من ناحية وعالم علوي صاف خالص وإن
كان فيه ما فيه من التثليث.

هذا الاقتراب الشديد من المسيحية يبدو أوضح من خلال تعاليم الدين
المانوي وهي التي ستكون سبباً في قتل النبي ماني لأنها تنافض المزدية
الزرداشتية. فالديانة المانوية إذا كانت قد راعت مستوى الناس العام ولم تضيف
إلى القيود الزرادشتية قيوداً جديدة تزيد من تكيلهم ، فقد فرضت على دعائها
المدعوين إلى أن يكونوا قدوة للآخرين ألا يمارسوا أي نشاط مادي يلحق ضرراً
بالعناصر المقدسة وألا يطلبوا أي شيء في الحياة يتم عن تعلق بالجسد-المادة،

8- م.س.ص. 179.

9- م.س.ص. 184.

فحرّمت عليهم امتلاك المال وأدخار ما يزيد عن حاجة اليوم الواحد من الطعام والسنة من اللباس وحرّمت عليهم الزواج وأكل لحم الحيوان والخمر وفرضت عليهم سبعة ايام صوم في الشهر الواحد وأربع صلوات في اليوم¹⁰.

هكذا اختلطت المزدية بالمسيحية فأعطت المانوية الزاهدة، ولسوف ترى الدولة الساسانية في هذه الديانة. (كما ستري في المزدكية الشيعية بعد قرنين) أكبر خطر على النظام الاجتماعي والسياسي فتقتل نبيّها سنة 276 وتحقق نصر الدولة ودينها الرسمي الزرادشتي على دين المعارضة السياسية الدينية. ونكاد نستغني عن الإشارة إلى ضعف إمكانية تأثير دين كالممانوية على العرب شبه المستقرين في الحيرة المجاورة أو على العرب البدو إذ تحول كل ظروف الحياة دون إمكانية تأثير مثل هذه الديانات الزهدية في قوم لا يسكنون المدن وتفرض عليهم حياتهم نفسها شظفا في العيش يفوق أحيانا ما يفرضه الزهد على المتزهدين. إن الزهد في الحياة تماما كالتزف بمظاهره المختلفة إنما هو ظاهرة مدينية بل هو في النهاية موقف من المدينة ولذلك فإن إرجاع ظاهرة الزهد والتصوف إلى الإيرانيين جميعا ومن دون تمييز أو تحديد لا يحتاج دحضه إلى مزيد بيان.

في المعسكر الروماني جدّت أحداث في هذا القرن لا تقلّ جسامة عما حدث في المعسكر الشرقي، واشتد تفكك العلاقة بين الدولة والمجتمع المتعدد الأجناس واللغات والثقافات بسبب تباعد الطبقات الاقتصادية واستماتة كل منها في التعلق بمصالحها وإتجاه مثقفها عن وعي أو عن غير وعي إلى صياغة نظريات تمتن مواقعها المادية والثقافية. وفي هذا العصر كان مجال التنظير المهيمن هو الدين خاصة وأن الارسطوطالية التي هي أكثر أخذًا بالطبيعي والمادي والواقعي والجسدي والأرضي في الأشياء قد أضعفت ظروف الواقع الصعبة القائلين بها فغلبت الافلاطونية بكل تفريعاتها وظهرت هذه النزعة التي نسبها بابلون في تعصبه على جوليا دومنا إلى إرادة ثأر سامية من "الديالكتيك الاغريقية النيرة التي طعمتها البراغماتية الرومانية".

10- المرجع السابق، ص 189.

والحقيقة أن أفضل معبر عن هذه النزعة قد ظهر منذ قرون ونعني بذلك فيلور اليهودي الاسكندراني (20 ق.م - 40 ب.م):

كان فيلور يعتبر كتب التوراة الخمسة¹¹ كتباً موحى بها من الله، ومثل هذا المبدأ كان مجهولاً لدى فلاسفة الإغريق. وفي الوقت ذاته كان فيلور يقول بثنائية الإنسان (أنه مادة وروح) التي نادى بها أفلاطون وأن الجسد هو سجن الروح التي تتوق أبداً إلى الخلاص منه والرجوع إلى الله. والله في نظر فيلور لا يحده عقل، وهو أسمى من كل معرفة. أما المادة فلها حدود ولها نهاية. ولذا وجب أن يكون هناك وسيط بين المحدود واللامتناهي. وهذا الوسيط بين الله وبين العالم هو "الكلمة" التي وصفها بأنها أول مولود لله: إنها الإله الثاني¹².

إن هذا الشاهد الطويل يلخص الأساس الذي ستتولد منه كل الخصومات الدينية اللاحقة. فهو يذكر لفظ الوحي (كتب موحى بها من الله) وينسب إلى الزعيم اليهودي موسى (القرن 13 ق.م) صفة الوعاء البشري الموهل في أوقات حياته المادية لتقبل مضمون الهي يختلف عن المضامين العقلية المرتبطة بتجربة الإنسان الحياتية فيطرح بذلك مسألة طبيعة هذا المضمون ووسيلة تبليغ هذا المضمون ومنزلتها.

وقضية الوحي هذه قد شغلت المفكرين ذوي الأمزجة العقلانية منذ القديم إذ لا بد من التفريق بين كلام الأنبياء (وهم بشر) الذي يندرج ضمن الوحي ويكون فيه النبي مجرد وعاء مستسلم ومسلم وبين كلامهم البشري العادي الذي يكون نتيجة تفكير وثيق الصلة بالأشياء المعهودة التي تدعو كل واحد من الناس إلى أعمال عقله فيها حتى يتمكن من التكيف مع الأشياء¹³. فالوحي يفترض حالة تقبل مطلقة أو حالة اسلام واستسلام يصبح معها التفكير

11- كتب التوراة الخمسة (Pentateuque) هي :

1- سفر التكوين (Genèse).

2- سفر الخروج (Exode).

3- اللاويين (Lévitique).

4- العدد (Nombres).

5- التثنية (Deutéronome).

12- فيليب حتي: خمسة آلاف سنة، ص 199.

13- Montgomery Watt: Mahomet à la Mecque, Paris, 1958, p. 80

العادي الذي هو حركة دماغ يتعامل مع مؤثرات محسوسة عائقا من عوائق التقبل. ومن هنا كان ارتباط تجربة الوحي في الديانات السماوية (إذ توجد ضمن البشرية أمم لها ديانات غير ديانات الشرق الأوسط....) بحالات تعطيل في نشاط العقل العادي وحالات فراغ توهل الانبياء لتقبل حقائق تختلف عن الحقائق التي يتوصلون إليها في حالاتهم العادية بل حالات نوم تشل إلى حد ما تأثير الأحداث البشرية وتفسح المجال للرؤيا.

إن اعتبار فيلو كتب التوراة الخمسة كتباً موحى بها من الله يعني أن النبي موسى كان في جمل اللحظات أو الدقائق أو الساعات الذي فرغ فيها ذهنه من كل ما هو مادي وشل تفكيره العادي ووعيه بالاشياء ومنها جسده كان في جمل هذا الوقت نبيا. أما في ما عدا ذلك من أوقات قد تمثل 99 بالمائة من حياته فقد كان انسانا يهوديا شبيها بأي كان من البدو اليهود إلا ما كان من هذا التمايز الطبيعي وبين فرد وفرد ينتميان إلى مجتمع واحد. أمّا ما سماه فيلو "الكلمة" أي "هذا الوسيط بين الله وبين العالم" فإن عبارة "أول مولود لله" لا يمكن أن تعبّر عنه بالتجريد المطلوب لأنها تقرّبه من صورة البنونة المعهودة والحال أنه "الاه ثان".

إن تهويد الأفلاطونية يتمثل في إحلال مضمون ديني مثالي محلّ المضمون الوثني المثالي الأفلاطوني أي تدين المضمون وستنشط الحضارة الغربية البرجوازية الحديثة في تدوير هذا المضمون المهودّ اجتهادا منها لوضع جمل تاريخ اليهودية والمسيحية في وضع الجملة الاعتراضية في التاريخ البشري. هذا التهويد للفلسفة شطر الانسان نهائيا شطرين وسيدور الصراع العقائدي حول تضخيم الجانب البشري في المسيح أو تحجيمه. وفي فترات الأزمات الاقتصادية والاجتماعية كثيرا ما كان يهيمن الداعون إلى تحويل حياة الانسان جميعها إلى ما يقترب من هذه اللحظات أو الدقائق التي رأينا كيف كان موسى يفرغ فيها من محتواه البشري ليتحول إلى مجرد وعاء يملأه الوحي أي تملأه "السما". إن كل تضخم ديني ينجر عنه ضرورة إضرار بمملكة الأرض التي تقوم على "غرق

الانسان حتى ذقنه في الوحل" أي على النشاط المادي والتفكير المرتبط بحياة هذه المملكة.

غير أن اعقد قضية إنما تتمثل في كيفية انبثاث وحي الله المطلق في بشر محدود. بأي وسيلة يكون ذلك؟ بـ"الكلمة"؟ وبأي لغة؟ ولا لغة لله وكل لغة هي لغة بشرية أي محدودة وخاصة بأمة من الأمم. وما منزلة من يتقبل الوحي حتى إن كان ذلك في لحظات معدودات ومجرد تهيئه لتقبّل الوحي يجعل منه بشرا متميزا عن البشر.

هكذا نرى أن اختلاط الدين الموسوي بالفلسفة الأفلاطونية ابتعد بهذا الدين من حالة الفطرة (أي البساطة الملائمة لحياة البدو اليهود في القرن الثالث عشر قبل الميلاد) من دون أن يحقق اجماع الديانيين على هذه الفلسفة.

هذه الأزمة العقدية بدأت في الحقيقة من القرن الأول الميلادي بعد نهاية العصر الروماني الجمهوري (509-31 ق.م) وانفراد أركتافوس (سنة 27 ق.م) بحكم منطقة رومانية تمتد على مساحة 3.000.000 كلم² وتضمّ عددا من السكان يتراوح حسب تقديرات مختلفة بين خمسين وخمسة ستين مليون وهو رقم ضخم بالنسبة إلى سكان الأرض آنذاك إذ لم يكونوا ليتجاوزوا المائتين وخمسين مليونا ولم يكن بلد كالصين يعدّ أكثر من اثنين وخمسين مليونا من السكان. من هذه الفترة وحتى سقوط روما سنة 476 تحت ضربات البربري الجرمانى أودواكر Odoacre بدأت روما تسمى بالامبراطورية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من تركيز السلط جميعها في يدي الامبراطور. وقد انتظم الخمسون مليونا من السكان حسب هرمية تتوزع كالتالي:

- الامبراطور وأعضاء مجلس الشيوخ والقضاة المدنيين وكل هؤلاء كانوا حسب المعتقدات الرومانية على صلة بالالهة يديرون شؤون الدولة بوحى من المشتري.

- طبقة المحاربين حماة المدينة وناشري مجدها بوحى من اله الحرب المريخ.

- وفي القاعدة طبقنا الفلاحين والصناع اللتان توفران شروط الحياة المادية والفنية والتقنية للمدينة بروحي من Quirinus وإلى هذه الطبقة ينتمي النجار عيسى بن مريم زوجة يوسف.

أما القيصر أغسطس فتتجمع في شخصه الوظائف الثلاث: إن مكانة القيصر شبه الالهية (ومن القياصرة من سيتأله) لا يفسرها إلا عظمة روما التي بلغت في عهد اوكتافيوس ما بلغت وستبقى كذلك طيلة القرنين الأول والثاني الميلاديين لتبدأ بالتناقص بداية من القرن الثالث.

هذه المعتقدات الرومانية لم تكن محل إجماع كل سكان المستعمرات ومنها المستعمرة السورية التي كانت تعدّ خمسة ملايين نسمة من السوريين واليهود واليونان. وينشط فيها الدعاة الدينيون (إذ لا وطنية ولا صراع طبقيًا في مثل هذه الأزمنة فقد كان كل صراع يتخذ شكل الصراع الديني) سواء تعلق الأمر بأديان قديمة كاليهودية التي ترقى إلى عهد القائد السياسي والنبى موسى الذي قاد اليهود على عهد الفرعون رمسيس الثاني (1298-1235) في هجرتهم من مصر إلى بلاد الشام وقالت عنه التوراة أنه كَلَّمَ يهوه (Y.H.W.H) من فوق الجبل في سيناء وفتح الطريق لقيام الدولة اليهودية وازدهارها على عهد الملوك الثلاثة المشهورين شاول (1030-1010) وداود (1015-975) وسليمان (970-931) والتي ستبقى ذكراها حية عند القوم حتى بعد أن أصبحت دولتهم في وضع التابع لروما الأوروبية كما كان عليه الأمر في القرن الأول الميلادي أو تعلق الأمر بدين ناشيء جديد سيسمى فيما بعد بالمسيحية نسبة إلى المسيح (من الآرامية: مشيها) وهو عيسى اليهودي أحد أحفاد الملك النبي داود وابن مريم ويوسف وأخو يعقوب رئيس كنيسة القدس المتوفي سنة 62 م. وقد ولد هذا المجدّد الديني والمعارض السياسي في الناصرة (الخليل) سنة 7 أو 6 أو 4 ق.م كما أثبت ذلك العلماء في العصور الحديثة على عهد قيصر أغسطس واشتغل بالنجارة حتى حدود الثلاثين من عمره ثم نشط دينيًا فأثار نشاطه هذا السلطة الدينية اليهودية الرسمية والسلطة السياسية اليهودية المحليّة عندما اتضح لهما أن

دعوته تهدد أسس المجتمع الموروث إذ تقوم على قراءة جديدة لعلاقة الانسان بالاله وبالدولة وبالانسان فرفعت قضيتته إلى المسؤولين الرومان.

لقد تأكد أن شروح التوراة الأكثر نفاداً قد عجزت عن الاتيان بإشارة جلية إلى خلود الروح في التوراة. إن اليهودي يسأل عما يأتي هنا وعما يأتي الآن من أفعال، فإذا أخطأ فلن يعاقب أو يشفع له في حياة أخرى يعلم الله ما هي. إن اليهودي، إذا كان مؤمناً وإن دعت الحاجة إلى ذلك، يدرك فحسب أن الرسالة التي يجب عليه أن يضطلع بها في هذه الحياة إنما تعزز طابع هذه الحياة المقدس¹⁴

فليس في الموسوية عندئذ هذه النواة المولدة لكل أشكال الشعور بالذنب ولكل أشكال الانشطار والحرية يشلّ طاقات التمدد البشرية إن سكنت الانسان. وها أن عيسى "يبيشر بقرب حلول يوم الحساب وبضرورة التوبة في انتظار الحساب وعدم حرمان أي تائب من الخلاص من هذه الساعة المشهودة"¹⁵ إن الدعوة إلى مملكة السماء تعني إن سكنت النفوس دعوة إلى هجرة الأرض وتحولا من المواطنة إلى الأخوة الدينية وتفضي إلى انشطار في الولاء : ولاء للدولة (الأرض) وولاء لله (السماء) : هذا عندما يتمكن الانسان من تحقيق تعادلة صعبة كثيرا ما تكون مزعومة. أمّا اذا تضخّم الولاء لله عند بعض المؤمنين فان الحياة الحقّة تصبح عندهم حياة الزهد في ما لقيصر والتعلّق بما لله. وذلك هو مضمون دعوة عيسى وذلك هو مضمون قول الشاعر العربي أبو العتاهية: لِدُّوا للموت واهنوا للخراب. لذلك قاوم عيسى من اليهود من رأوا في دعوته خروجاً عن دين موسى القديم الذي لا يتضمّن هذا القدر من الزهد وقاومه الرومان لأنّ جزءاً من ولاء المواطنين لقيصر سيتحوّل الى الله أي أن جزءاً من ولاء المواطنين سيتحوّل من روما عاصمة الامبراطورية الى السماء.

لقد قاد تصوّر السلطة ورجال الدين التقليديين لتركيبة المجتمع الفضلي الى ما رأينا من هرمية يتنزّل فيها الصناع والفلاحون منزلة القاعدة حتى لا نتحدّث عمّن دونهم مكانة اجتماعية وها أن عيسى "لا يتحرّج (...) من

14 - Josy Eisenberg. Une Histoire des juifs, 1970 - p. 578.

15 - عبد المجيد الشرفي... الفكر الاسلامي في الردّ على النصارى، 1986 - ص 33.

معاشرة الاصناف الهامشية والمنبوذة في المجتمع اليهودي من عشارين وبغايا وأناس بسطاء محتقرين لجهلهم بالشريعة¹⁶.

وهذا الجانب الآخر في المسيحية هو الذي لن تتمكن الحضارة البورجوازية الرأسمالية من هدمه في المسيحية لأنه أفضى الى تبلور علاقة بين الانسان والاله قوامها الأب - الابن كبديل عن العلاقة السيد - العبد، ومن يقرأ لبعض الكتاب المسيحيين وغير المسيحيين من العرب المعاصرين كجبران في كل ما كتب وكنجيب محفوظ في "الرص والكلاب" يحس بهذا الاستغلال المكثف لسلوك المسيح الذي يتجاوز الانتماء الديني ويتجاوز أشكال الكتابة بدليل أن رواية كـ "المعذبون في الأرض" لطف حسين تخلو رغم العنوان والنماذج البشرية موضوع الرواية حلولا كاملا كما ذكرنا. أما في الغرب المسيحي فقد تمثل هذا الجانب في مناصرة بعض رجال الدين للثورات التحررية وفي اشتغال كثير من اللائكيين بأعمال البرّ عبر العالم. فلا بدّ عندئذ من استحضار هذا الجانب عند المقارنة بين الموسوية والمسيحية والمحمدية : فشمس الله المسيحية تبدو هنا دافئة لا محرقة.

لقد تجمّعت اذن في الدعوة الجديدة كل العناصر التي تجعل منها دعوة خطيرة دينيا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا على الدولة الرومانية وعميها من أعيان اليهود. ومن هنا كان الصراع بين عيسى والسلطة اليهودية المحليّة :

إنّ حادثا بارزا في دعوته يظهره لنا ملتجنا الى نوع من العنف الماديّ لاصلاح المؤسسة اليهوديّة المركزيّة، ذاك هو طرد تجار الهيكل، وهو حادث تبذل صفته التاريخيّة مؤكدة في جملة: ان عيسى بطرده العنيف للصيارفة الذين يوفرون للحجاج النقود الخالية من الصور البشريّة حتي يتمكنوا من أداء الضريبة للهيكل، وكذلك لتجار الذين يعرضون على المؤمنين الحيوانات الصالحة للقربان، انما يهاجم أقوى وسط في الشعب اليهودي، وسط المتصرفين في الهيكل وفي ثرواته وطقوسه، وبالتالي يهاجم الخبر الأكبر ذاته¹⁷.

وردّت السلطة السياسية اليهودية المحليّة الفعل فاعتقلت هذا المعارض الديني - السياسي وسلّمتة الى سلطة الحماية الحريصة على الحفاظ على الأمن في

16 - المرجع السابق، ص 35.

17 - المرجع السابق ص 35.

مستعمرتها "وكل الدلائل تشير إلى أنه قتل صلبا في ربيع سنة 30 م بطريقة كانت مرادفة لا كبر لعنة في تلك البيئة"¹⁸.

لقد ظنّت السلطة السياسية وهي تسلك بازاء عيسى هذا المسلك العنيف أنها قد اجتثت هذه الدعوة الدينية الجديدة من جذورها ولم تتفطن في الابان إلى أن الأموات في كثير من الأحيان هم أكثر خطرا بما لا يقاس من الأحياء. وفعلا فلقد أصاب أتباع عيسى المؤمنين بأنه المسيح المنتظر لا مجرد نبي من البشر ما أصابهم من صدمة دامت بعض الوقت ولكنها لم تعمّر طويلا. وتضخم السؤال الكبير: كيف يمكن أن تمتحن كائنات بشرية زائلة الها حالدا ؟

دام السؤال حينما من الزمان وأفاق الحواريون من صدمتهم اثر رؤيا تعلن عن تهافت الخيار الروماني. يقول يوحنا¹⁹ في رؤياه (18/1/1) متحدّثا عن ظهور المسيح بعد دفنه:

"فلما رأيته سقطت عند قدميه كاليت، فوضع يده اليمنى عليّ قائلا : لا تخف، أنا الأول والآخر والحي، وقد كنت ميتا وها أنا حيّ الى دهر الدهور، ولي مفاتيح الموت والجحيم"²⁰.

ولنستحضر من جديد ما ذهب إليه فيلو عندما قال بثنائية الانسان وأنه مادة وروح أي شكل ومضمون فعيسى الذي صلب ودفن على مرأى ومسمع من الجميع أي عيسى التاريخي لم يكن غير الجسد والشكل والصورة أي هذه المادة الزائلة الخاضعة لقوانين الطبيعة من حياة وموت ولكن المسيح الذي ظهر ليوحنا في الحلم (أي في هذه الفترة التي بدت له انها فراغ ذهني مطلق لا شائبة تشوبه من حضور أرضي انما هو ذلك المضمون الروحي الخالص الذي أسكنه الله جسد عيسى حتى يكون واسطة بين الله والبشر ويوم انتهت رسالة عيسى في الأرض عاد للاتصال بمصدره وهو الله في حين لم تحتفظ الأرض منه الا بما شبه لمن صلبوه أنه المسيح وليس هو في الحقيقة غير وعاء المسيح (أي الجسد).

18 - المرجع السابق ص 38.

19 - يوحنا : أحد الحوارين الاثني عشر وصاحب أحد الاناجيل الاربعة القانونية (ت. حوالي 100).

20 - ع. الشرقي - الفكر الاسلامي، ص 38 (حاشية 45).

ولسوف ينتشر أتباع المسيح في العالم كلّه منذ هذه الفترة المبكرة لنشر الدين الجديد الذي سيزداد ابتعادا عن اليهوديّة حتى يستقلّ بنفسه دينا انسانيا لا دينا وطنيا مخصوصا بشعب كالدين اليهودي رغم ما سيلحقهم طيلة ثلاثة قرون من تعسف السلطة الرومانيّة واستعصاء هذا الدين على العقول الميالّة الى فهم للاشياء قريب من الارسطوطاليسية البذرة الاولى للتفكير الاقرب الى المادية والواقعية، ورغم اختلاف المسيحيين أنفسهم في فهم طبيعة المسيح.

ذلك أنّه ليس من السهل على كل الناس أن يفهموا كيف يكون من الممكن أن يتحوّل انسان خاضع لطبيعة البشر بما تتضمّنه من ولادة ونموّ وموت الى كائن خارج عن قوانين الطبيعة يظهر في النوم بعد صلبه بأيام لبعض حواريه ليعلن لهم أنّه حيّ خالد لا يموت. ورغم هذه النشأة "القيصريّة" لبعض الاديان فان الغريب فيها أنها يوم تتمكّن بفعل الزمن من نفوس الناس تكتسب لارتباطها بمصير الانسان ما ليس بإمكان أي تجربة بشرية أن تكتسب.

تحدّث المعري في حيرة عن الأديان جميعها :

عجبت لكسرى وأشياعه	وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى اله يضام	ويظلم حيّا ولا ينتصر
وقول اليهود اله يحب	رئيس العظام وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلاد	لرمي الحجار ولثم الحجر
فوا عجباً من مقالاتهم	أيعمى عن الحقّ كل البشر

وتحدّث وليم جيمس (1842-1910) في كتابه: "البراغماتيّة" عن "المزاج العقلاني" و"المزاج التجريبي" فكتب: "إن تاريخ الفلسفة [والاديان والأدب والفن والسياسة...] إنّما هو في جزء كبير منه تاريخ نوع من النزاع بين الامزجة البشرية" "ففي الفلسفة [وفي الأنشطة الانسانية الأخرى] نرى تباينا تعبّر عنه الصفتان "عقلاني" و"تجريبي". والصفة الأولى تلازم من يكون من الناس مسكونا بهذا الاطمئنان إلى المبادئ الخالدة والمطلقة في حين تلازم الثانية

من لا يطمئن إلا إلى الأحداث على تنوعها وتشتتها. إن المزاج الاعتقادي يتبدى في كل ما يصدر عن العقلاني من تأكيدات. أما التحريبي فهو يبدو أكثر ميلا إلى الشك وإلى إخضاع كل شيء للنقد الحر²¹ على أن هذا التعقيد في المسيحية لا يفسر بغير ظهورها في فترة وفي بيئة ابتعدتا كثيرا عن البساطة والفطرة.

كتب غوستاف لوبون (1841 - 1931) في ثمانينات القرن التاسع عشر، عصر ازدهار الوضعية الفرنسية، مقارنا بين المسيحية التي ظهرت في بيئة فلسفية صبغت بتقيد بالغ وبين الاسلام "دين الفطرة" في لهجة يعجب من قرأ كتاب لوبون (وكتبه الاخرى) كيف "استعصت" على حسن من ترجمه من العرب المسلمين الى العربية أكثر من مرة²²:

بإمكان الاسلام أن يفخر بأنه كان أول دين أدخل التوحيد الصرف في العالم. إن بساطة الاسلام الفائقة منبعها هذا التوحيد وعلينا أن نبحث عن سر قوته في هذه البساطة: أنه قريب المأخذ وهو لا يعرض على معتقيه أي سر ولا أي تناقض من هذه الأسرار والتناقضات الكثيرة الشيع في عقائد أخرى والتي غالباً ما تصدم العقل السليم. هو يقول بآله مطلق الوحدانية على الناس عبادته وأن كل الناس أمامه سواء ومبادئ قليلة يجب مراعاتها فالنعيم كثواب لم يتقيد بها والجحيم كعقاب لمن يتخطاها. أنه لا شيء بإمكانه أن يكون أكثر وضوحاً ولا شيء بإمكانه أن يكون أرفع للبس. أن أي محمدي مهما كانت مكانته الاجتماعية يعرف ما يجب أن يكون عليه معتقده ويمكنه في كلمات قليلة أن يعرض في غير ما صعوبة أركان عقيدته. أما المسيحي فعليه إذا أراد المجازفة بالحديث عن الثالوث وعن استحالة القربان (أي تحول خبز القربان وخمره الى جسد المسيح ودمه) وعن أي سر مشابه من الأسرار أن يكون زيادة على صلفه كمسيحي عالماً باللاهوت، طويل الباع في كل دقائق الجدل²³.

وفعلاً فإن المسيحيين سينشغلون طيلة القرن الثالث (والقرون التي تليه) بصراعات دينية أظهرتهم كشتات ازاء الدولة الرومانية المعجبة بطريقة الدولة

21 - William James - Le pragmatisme - Paris, 1968 - pp. 25, 27, 28 -

22 - الحقيقة أن من ترجموه إلى العربية نهاية القرن التاسع عشر خاصة حذفوا منه ما لو نشر - عملاً بالأمانة "العلمية" - لعلقوا بسببه على المشائق المعنوية والحبلية.

23 - Gustave Lebon - La civilisation des Arabes, 1959 - p. 79. -

الساسانية في قمع النبي ماني وأنصاره وتركيز الهرمزية الزرادشتية دينا رسميًا للدولة.

إن تعقيد الدين الجديد وتشتت معتنقيه يرجعان كذلك الى ما تتصف به أجزاء الامبراطورية الرومانية من خصوصيات واختلاف في مستوى التطور ومن ثم أشكال التقبل الديني. وكانت مراكز الاشعاع المسيحي في هذه الفترة ثلاثة هي قرطاج والاسكندرية وأنطاكية حتى لا نتحدث عن رومة التي كانت (وستبقى) تطمح الى الانفراد بشرعية التوجيه الديني تبعاً لمكانتها السياسية في الامبراطورية هذه المراكز الثلاثة من الصعب أن يكون بإمكانها لأسباب اجتماعية وثقافية وسياسية أن تتقبل المسيحية (أو أي دين آخر) التقبل نفسه وسيكون تاريخها الديني والسياسي محكوماً بهذه الخصوصيات: ولذلك فبقدر ما بدا الشمال الافريقي قريباً من الامتثالية الدينية السنية لأسباب من بينها قرب قرطاج من الجزمة الايطالية (botte italienne) بدت الاسكندرية، التي تغلغل فيها التفكير اليوناني منذ فتحها اسكندر سنة 332 ق.م فركب تراثاً فرعونياً يحتفل بالموت احتفالاً بالغاً، موطناً لفكر تغلب عليه النزعة الافلوطينية التي تميل الى التوفيق بين الافلاطونية والمسيحية فتلقص تبعاً لذلك من طبيعة المسيح الانسان (الأرض، المادة، الطبيعة، السياسة، وما نشوء الرهبنة في هذه البلاد وانتشار ظاهرة "نحن" البنات في فترة ما من فترات التاريخ الا دليل اضافي على ذلك) وحتى تصل الى هذه الغاية كانت كثيراً ما تعتمد الى قراءة باطنية للنصوص الدينية بحثاً عن معنى أعمق من المعنى الذي تتيحه حروفها الظاهرة²⁴.

أمّا انطاكية مركز الاشعاع في سورية فكانت أكثر ميلاً الى الارسطوطاليسية لذلك فهي تميل الى فهم طبيعة المسيح فهما فيه الكثير من البشرية والارضية والمادية والطبيعية وذلك على الأقل في فترة من فترات النشأة الأولى²⁵ وحتى تصل الى هذه الغاية كانت كثيراً ما تفضل عند قراءة النصوص الدينية انتهاج طريقة نقدية دياليكتية قوامها اعتماد المعنى القريب والظاهر في

Pierre Rondot - Les Chrétiens d'Orient, 1955 - p. 40. — 24

25 - في فترة لاحقة ستهيمن المونوفيزية في بلاد الشام.

النصوص²⁶. وهكذا فانه بإمكان النزعة الاسكندرية الافلوطينية أن تبلغ في تأكيدها على وحدة شخص المسيح حدّ انكار طبيعتين فيه مختلفتين : واحدة انسانية وأخرى إلهية. كما أنه بإمكان النزعة الانطاكية الارسطوطاليسية أن تبلغ في تأكيدها على اختلاف طبيعتي المسيح الانسانية والالهية حدّ رفض القول ان مريم هي أم الله.

ولسوف تشتدّ الخصومة بين المدرستين في القرنين الرابع وخاصة الخامس فيندرج أنصار الرؤية الأولى في من يسمّون بالمونوفيزيين (نسبة الى من يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح) في كل من مصر والشام ويندرج أنصار الرؤية الثانية في من يسمون بالنساطرة في بلاد الرافدين وفارس... أمّا روما أولا وبيزنطة بعد انتقال مركز السلطة السياسية نهائيا إليها فستنسب إلى أنصار الأولى صفة الكاثوليك وإلى أنصار الثانية صفة الملكيين أو الأورثوذكس.

هذا في ما يتعلّق بتأثير التراث الفكري القديم في طريقة تقبّل المناطق الرومانية المختلفة أوضاعا اقتصادية واجتماعية وتراثا ثقافيا ضاربا في القدم للمسيحية وهذه ظاهرة ستعرفها كل الديانات. ففي الاسلام مثلا اذا كان كل المسلمين يقولون نظريا بشروط الاسلام فهم على مستوى ما يضمّنون هذه المفاهيم من مضامين، يظهر السلوك اختلافها، يبدون أبعد ما يكونون عن الوحدة فبين اليمني والنجدي والمكي والمصري والشمال الافريقي حتى لا نتحدث عن الافغاني والاندونيسي من فروق الحس الديني ما لا يرفض القول به الا من يقول ان اسلام روجي غارودي واسلام هذا الذي فسّر احمرار لون مطر ملوّث بحرب سماوية بين المؤمنين والكفار هما اسلام واحد. أمّا ما ذكرنا من تعقّد هذا الدين فيمكن أن نضرب عليه مثلين : مثل النبي محمد الذي كان يحتفل ضمن تعادلية صعبة بالصلاة والعطر والنساء ومثل "أوريجينوس" الذي ذكرنا اطلاع الامبراطورة السورية جوليا دومنا بصورة شخصية أو بطريق المطالعة على فلسفته المتصلة بطبيعة المسيح : لقد بلغ زهد أوريجينوس في الدنيا حدّا دفعه إلى أن يجيئ نفسه ابتغاء قتل الطبيعة الارضية فيه وسعيا منه الى تحرير نفسه من قيد

الجسد. فسلوك أوريجينوس كان نابعا من تصوّره الخاص للمسيحية ولقضية طبيعة المسيح.

هذا اذن مثال على التعقيد البالغ في هذا الدين الذي ما كان ليتكثف فيه التجريد العقلي لو ظهر في بيئة غير البيئة السورية المشبعة تراثا فلسفيا وهكذا كان وضع المسيحيين في القرن الثالث: خصومات دينية بين أنصار الدين الجديد وخصومات بينهم وبين اليهود وخصومات بينهم وبين أتباع الوثنية الرسمية. ولقد كانت الامبراطورية الرومانية ترقب بقلق تفتت الوحدة العقدية في الامبراطورية في وقت عمدت فيه الدولة الشرقية الخصم إلى اعدام ماني حفاظا على دين الدولة الرسمي أي حفاظا على مركزيتها. لذلك لا يستغرب المرء أن يتخذ الامبراطور دقيوس (248-251) سنة 250 اجراءات قمع ضد المسيحيين اضطرت الكثيرين الى الفرار من عسف السلطة ومنهم أهل الكهف الذين تحدّث عنهم القرآن (الكهف 8/18-25)²⁷، أو أن يتخذ بعد

27- "أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا، إذ آوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا. نحن نقص عليك نبأهم بالحق أنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا. هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا. وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا. وترى الشمس إذا طلعت تزور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. ونحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا. وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا. انهم ان يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا. وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الدين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا فيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الأمراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ولا تقولن شيئا اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء

فترة تسامح نسبي امبراطور آخر هو ديوقلتيانوس (284 - 305) تدابير ضد
المسيحيين أقسى مما اتخذ دقيوس:

أثار هذا الامبراطور أعنف اضطهاد وأقساه في تاريخ الكنيسة فاصدر تباعا أربعة
أوامر يقضي أولها بهدم الكنائس ومصادرة الكتب والأنية المقدسة ومنع المسيحيين
من شغل وظائف في الدولة ويقضي الثاني بسجن الاكليروس بينما يوضح الثالث
مصير المساجين ويتوج الرابع هذه التدابير بالحكم بالموت أو التعذيب أو النفي الى
المناجم على الذين يمتنعون من تقديم القرابين للآلهة²⁸.

لقد بقي هذا الامتحان في التراث الفكري والأدبي المسيحي مثالا
مزدوجا على جيروت الرومان الوثنيين واستماتة المسيحيين في الدفاع عن
دينهم. نظم الشاعر الرومي الكاثوليكي الغساني اللبناني خليل مطران (1871 -
1949) في احتفال أقامه الاقباط المونوفيزيون تخليدا لذكرى شهدائهم :

الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا. ولبثوا في
كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا. قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات
والارض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا" لوليت
منهم فرارا ولملت منهم رعبا. وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم
قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فإبعضوا أحدكم يورثكم هذه الى
المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا. انهم
ان يظهروا عليكم يرمواكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تغلحوا اذن أبدا. وكذلك أعثرنا
عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا
ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الدين غلبوا على أمرهم لتتحزن عليهم مسجدا
سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون
سبعة وثمانهم كلبهم قل ربي أعلم بعثتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الامراء
ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ولا تقولن شيئا اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء
الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا. ولبثوا في
كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا. قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات
والارض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا"

28 - ع. الشرفي - الفكر الاسلامي ص 83.

صبروا على جبروت عات قاهر ساء النهى والدين كل مساء
ما كان "دقلتيان" الا طاغيا ملك الرقاب بغلظة وجفاء
لانت له الصمّ الصلاد ولم تلن شيئا قلوب الصفوة الفضلاء²⁹

ولكن أيّ دولة بإمكانها أن تعارض تيارا دينيا تغلغل في المجتمع حتى العظم وشدّ اليه حتى بعض كبار الساسة وكان يستجيب أكثر من الوثنية الى روح العصر المتجهة بحتمية نحو التوحيد... أنّه لن تحين سنة 313 حتى تعلن الدولة الرومانية عن قرارها بضمنان حرية المعتقد. وهذا القرار لن يكون في حقيقة الأمر غير الخطوة الاولى نحو تبني الامبراطورية الرومانية ذاتها دين من اضطهدتهم طيلة ثلاثة قرون.

هكذا اذن انتصرت الدولة الساسانية على المانوية وانتصرت المسيحية على الدولة الرومانية فكيف كان وضع العرب في مشارف هذه الأراضي الزاحرة بالصراع العقدي في القرن الثالث؟

يقع العرب في منطقة ان لم تتعرض قبل تنصّر الدولة الرومانية في القرن الرابع الى تأثير التيارات الدينية المتصارعة بشكل حاد فانها لم تكن في بعض المناطق المتاحة للامبراطوريتين في منعة من تأثير هذه التيارات منذ القرن الثالث الميلادي. فإمارة الحيرة التي زامن قيامها قيام الدولة الساسانية اذا كان أمراؤها على العموم وثنيين إما عن عقيدة صادقة أو تجنبا لما يمكن أن يثيره اعتناق المسيحية من تحفظ حماتهم الساسانيين المزددين، فان بعض أفراد حاشية الامراء اللخمييين كانوا نصرانيين منذ فترة مبكرة اشتهروا في كتب التاريخ باسم العباد. نقول أمراؤها على العموم لأنّه وجد من بين هؤلاء من حمى المانويين المضطهدين في ايران كعمرو بن عديّ (260-273) ومن تنصّر كابنه امرؤ القيس بن عديّ (274-328) الذي تسبّب تشييعه للرومان في فساد العلاقة بين الساسانيين واللخمييين. كتب ابن خلدون عن العباد :

29 - خليل مطران - الديوان، ج 1 ن ص 80.

ثم رجع أردشير (225-241) إلى أمر العرب وكانت بيوتهم على ريف العراف ينزلون الحيرة، وكانوا ثلاث فرق : الأولى تنوخ (...) وكانوا يسكنون بيوت الشعر والوبر ويضعونها غربي الفرات بين الأنبار والحيرة وما فوقها فأنفوا من الإقامة في مملكة أردشير، وخرجوا إلى البرية. والثانية "العباد" الذين كانوا يسكنون الحيرة أو وطنوها، والثالثة الاحلاف الذين نزلوا بهم من غير نسبهم، لم يكونوا من تنوخ الناكثين عن طاعة الفرس ولا من العباد الذين دانوا بهم فملك هؤلاء الاحلاف الحيرة والأنبار وكان منهم عمرو بن عدي وقومه فعمروا الحيرة والأنبار³⁰.

وأما عمرو بن عديّ هذا فكتب عنه ابن خلدون :

ولما ملك عمرو بن عدي ولي بعده على العرب وسائر من ببادية العراق والحجاز امرؤ القيس بن عمرو بن عديّ ويقال له البدء وهو أول من تنصّر من ملوك آل نصر وعمال الفرس³¹.

وكتب في موضع آخر عن خليفته امرؤ القيس:

وملك سابور لثلاثين سنة من ملكه وولي بعده ابنه هرمز فملك سنة واحدة وولي بعده ابنه بهرام بن هرمز (273-276 : هذا الذي قتل ماني سنة 276) وكان عامله على مذبح من ربيعة ومضر وسائر بادية العراق والجزيرة والحجاز امرؤ القيس بن عمرو بن عدي وهو أول من تنصّر من ملوك الحيرة وطال أمد ملكه" (إلى سنة 328)³².

والإتفاق حاصل على أن العبّاد كانوا نصارى منذ فترة مبكرة : فلقد تسربت المسيحية إلى الامبراطورية الساسانية ومن ضمنها بلاد الرافدين بشكل تؤكّده فلسفة ماني المشبعة غنوصية ومسيحية في نفس الآن.

وإذا كانت المسيحية قد بلغت في انتشارها بلاد الرافدين الساسانية فليس من الغريب أن تكون أكثر انتشارا في المناطق الواقعة في منطقة النفوذ الروماني ومنها الشام الذي هيمنت على جزء منه مملكة تدمر في فترة أولى ثم تآقت ملكة هذه المملكة زينوبيا في ستينات القرن الثالث إلى الاستقلال به جميعه عن الامبراطورية الرومانية فليس بإمكان من يؤرخ لهذه الفترة أن لا يتعرّض لبولس

30 - ابن خلدون - كتاب العبر، ج 3، ص ص 341 - 342.

31 - المرجع السابق - ص 548.

32 - المرجع السابق - ص 345.

السميساطي وزير الملكة زينوبيا (267 - 272) في تدمر: هذه الملكة لم تكون مسيحية ولكنها كانت تأخذ بمذهب تألّفي وكان ابنها وشريكها في الحكم يسمى وهب اللات (أي هبة اللات، واللات والعزى ومناة طيور بحرية) على عادة الوثنيين ولكنها حمت طيلة فترة حكمها مستشارها السياسي وخازن المملكة بولس السميساطي حتى عندما أدانه بجمع انطاكية وأقاله من منصبه الديني لـ "هرطقته" وقوله ان المسيح استحال الها (أي لم يكن كذلك في الأصل). مما تحقّق عنده من تلاؤم بين ارادته واتحاد حبّه للآب.

وتشير كثير من المصادر والمراجع المتعلقة بهذه الفترة الى الجهد الذي بذله أوريجينوس (186 - 254) في سبيل العودة ببعض "الهراطقة" العرب في بُصرى وشرق الاردن والعربية الصحريّة الى النهج الديني الصحيح وقد اضطر أكثر من مرة الى الانتقال من الاسكندرية الى بلاد العرب تحقيقا لهذا الغرض. ان هذا لا يعني أن المسيحية قد انتشرت بشكل كبير في الجزيرة ولا أنها قد حملت حتى في الجيوب التي انتشرت فيها قدرا كبيرا من العمق الفكري ولا أنها لم تكن تجاور عبادة الاوثان اذ لا يمكن للناس حتى عندما يتبنّون مفاهيم جديدة أن لا يحتفظوا بقدر كبير أو صغير من مضامين تراثهم السابق. ومع ذلك فيمكن للمرء أن يدي في ما يتعلق بهذه المسألة بعض الملاحظات :

أولا: ميل العرب ممن نبذوا الوثنية في بلاد الرافدين خاصة الى المسيحية وانصرافهم عن المزدية رغم ارتباطهم السياسي بالساسانيين وأسباب ذلك كثيرة ولكن يمكن القول أنه قد برز حتى عند بعض الايرانيين ميل الى المسيحية واعراض عن المزدية منذ عهد ماني فكأنّ هذه الدعوة الدينية كانت تشي بعدم ملائمة المزدية لروح القرن الثالث : وسيزيد الايرانيون بعد سقوط الدولة الساسانية بقرون جهدا كبيرا لاستعادة شخصيتهم السياسية واللغوية ولكنهم لن يبدوا رغبة مماثلة في ما يتصل بالمزدية...

ثانيا: بغض النظر عن تعايش المسيحية والوثنية عند بعض القبائل العربية فالملاحظ أن المسيحية سوف تتسرب في هذه الفترة المبكرة الى العرب الجنوبيين أكثر من سواهم لقرب مواطنهم من حلبة الصراع العقدي وعلى العكس من

ذلك فان جزءا كبيرا من القبائل العدنانية ستبقى الى فترة متأخرة على وثنية شاذة اذا ما قيست الى تطور أمم أخرى.

ثالثا: ان المرء لن يعدم حتى القرن السابع قبائل عربية مازالت تعبد الاوثان من ردّ (كلب بدومة الجندل) الى سواع (هذيل بينبع) الى يغوث (أنعم من طيء وأهل جرش) الى سعد (ملكان بجدة) الى مناة (الاوس والخزرج) ... ولكن ذلك لا يعني أن العرب لم يعرفوا منذ هذه الفترة بداية تفتت في النظام العقائدي الذي كان قائما في منطقتهم وسيدفع تنصّر الدولة الرومانية في العقود الاولى من القرن الرابع أعدادا متزايدة من العرب إلى النصرانية وإن في أشكائها الوطنية الهراطقية (النسطورية في الحيرة والمونوفيزية في بصرى).

رابعا: يمكننا مع بعض التحفظ ازاء الفترة التي قال هافنيث Havenith إن المسيحية انتشرت فيها في بعض القبائل العربية أن نأخذ برأيه في ما ذهب إليه من تحديد للقبائل العربية التي انتشرت النصرانية في صفوفها :

يمكن أن نذكر من هذه القبائل تغلب ونمير وبهراء وتنوخ والخميين وان كان أمراء هؤلاء قد بقوا وثنيين لفترة طويلة والغسانيين بطبيعة الحال. أما اياد فمازالت في أغلبها وثنية. وفي شمال الجزيرة العربية كان الكلبيون وخدامة في أغلبيتهم نصارى وليس ذلك شأن طيء التي لم تنصرا لا في جزء منها. وقد تعرضت يمامة وحنيفة في وسط الجزيرة الى التأثير المسيحي كما تعرض لذلك وان بقدر أقل كل من تميم وعبد القيس. وكان للنازلين في البحرين وعمان كنائس مزدهرة شأنهم في ذلك شأن قبائل الحرث وكندة في الجنوب العربي وكذلك سكان جزيرة سوكونة³³.

Havenith (Alfred) - Les Arabes chrétiens nomades au temps de Muhammad, 1988 - - 33

p. 55.

الفصل الثالث

بين قسطنطين وسابور "ذي الاكتاف".

مكن تنصر الدولة الرومانية الدين المسيحي من قدرات تبشيرية ضخمة فازداد انتشارا في منطقة النفوذ الروماني وبلغت دعوته أمما جديدة في المناطق القريبة من هذا النفوذ. وأفضل مثال يمكن أن يضرب على هذا الانتشار هو تنصر الحبشة نتيجة النشاط التبشيري المصري واجتهاد المسيحيين في تنصير اليمن:

فنحن نعرف أن جنوب الجزيرة قد تنصر منذ القرون الأولى. وقد روى روفين Rufin قصة تنصير المملكة الحميرية بين 326 و 360 م. لقد أراد ميروبيوس Méropius أحد فلاسفة مدينة صور استكشاف هذا البلد رفقة شابين هما أيدسيوس Aedessius وفرومينتيوس Frumintius. وفي أحد الموانئ قتل السكان ميروبيوس وبعثوا أيدسيوس وفرومينتيوس أسيرين إلى الملك انتقاما لحلف نقضه الرومان. وقد نال فرومينتيوس ثقة الملك عمرو وأصبح سكرتيره. وبعد موت الملك اعتنى بابنه وأصبح مستشار الملكة بلقيس. وقد انتهز هذا المقام العلي لنشر الانجيل فسماه القديس أثناس Athanase بطريك الاسكندرية اسقفا للملكة¹.

وإذا كانت هذه الاخبار تتحدث عن تبشير سلمي فمن الاخبار كذلك ما يفيد أن التبشير اتخذ اضافة إلى الشكل السلمي شكلا عسكريا بحثاً:

فقد يكون ملك أثيوبيا قد استولى سنة 345 تقريبا على اليمن وعين عليها حاكما فتنصر السكان وبنوا لهم كنائس كثيرة².

1- Havenith, Les arabes chretiens nomades, ص 65.

2- المرجع السابق، ص 65.

فالأجماع حاصل حول ما كان لنجاح مسيحي مصر في تنصير الحبشة من أثر كبير في تأجيج صراع ملك الملوك الحبشي (النجاشي Négus) ضد الدولة السبئية التي انقسم سكانها إلى متنصرين ومتهودين ووثنيين. وقد انتهى الضغط المسيحي الحبشي بالهيمنة على جزء من البلاد فتلقب الملك الحبشي بلقب ملك (أكسوم وحمير وريدان وحبشة وسلع وتهامة)³

إن ما قيل عن الحبشة وعن حمير في هذه الفترة يمكن أن يقال عن بعض القبائل العربية شمال الجزيرة وعن أجناس أخرى تقع مواطنها قريبا من منطقة التأثير الروماني. غير أن انتشار المسيحية بهذا الشكل السريع على عهد قسطنطين (306-337) وخليفته كونستانس الثاني (337-361) في بيزنطة وخليفته كونستانس الأول في روما (337-350) إذا كان يخدم الكنيسة والدولة الرومانيتين في الأمد البعيد فإنه لم يكن ليخدمها على المدى القريب ذلك أن الغوط (Goths) كانوا قد تجمعوا في هذه الفترة بفرعيتهم اللاحقين الاستروغوط (Ostrogoths) والفيزيغوط (Visigoths) على حدود الامبراطورية الرومانية الأوروبية الوسطى واتخذوا وهم يتنصرون من الأريوسية التي تنفي ألوهية المسيح مذهباً لهم. وفعلاً فإن الأسقف الأريوسي أوليفلاس (Ulfilas) قد تمكن من نشر هذا المذهب بينهم وصاغ لهم كتابة ولغة سوف تمكنهم من دعم خصوصيتهم الجنسية بخصوصية دينية لغوية وستحول دون قدرة بيزنطة وروما على ابتلاعهم وتفتح الطريق إلى الخصوصية القديمة الحديثة التي تفرق بين اللاتين (Latins) والشعوب السكandinافية الانكلوساكسونية.

لقد كانت الأريوسية بسبب توفر هذه المقومات الثلاثة أكبر خطر هدد المسيحية السنية فأريوس Arius القس الليبي (توفي سنة 336) يذهب في فهم طبيعة المسيح مذهباً دفع سيد قطب المصري زعيم الإخوان المسلمين إلى أن

3- النجار، علاقة... ص 13.

يرى فيه أصلح معبر عن المسيحية القويم⁴ ودفع أحد المختصين في دراسة الاسلام المعروفين إلى أن يقول قبل سيد قطب "أن أفكار الأريوسية المتعلقة بشخص المسيح كانت مطابقة تقريبا لما ستكون عليه أفكار الاسلام"⁵ ذلك أن أريوس يرى أن الله واحد أحد لم يولد وليس في الامكان أن يث جوهره (substance) في مولود. فكل شيء باستثناء الله الواحد إنما خلق بإرادة منه يقول له كن فيكون. وانطلاقا من هذا الفهم ليس بإمكان الكلمة (Le Verbe) أن يكون أكثر من مخلوق ميزته، حسب أريوس، أنه خلق قبل العالم وقبل الزمن. ويوضح أريوس قوله الأخير "قبل الزمن" دفعا لكل تأويل تألهي للمسيح: "لقد كان زمن لم يكن فيه الكلمة موجودا". وإذن فالمسيح مخلوق وسط بين الله والبشر وليس بإمكان البتوة أن تكون إلا بالتبني "فهو أقل منزلة من الله وإن كان أكمل من وجد ضمن المخلوقات"⁶. إن مذهب أريوس يعني نفي ألوهية المسيح.

والحقيقة أن اعتناق الغوط هذا المذهب يثير قضية المضامين الدينية (وغير الدينية) التي تفرغها الأمم المختلفة في ما يعرض عليها من مفاهيم. وهذه المضامين تختلف من أمة إلى أخرى لاختلاف تاريخها وثقافتها. وحتى في المجتمعات المعاصرة التي استفادت من تطور التقنية وانتشار التعليم، يصعب على المرء أن يقر أن القوم في تونس (وما تتضمنه من مرتبة في الثقافة والوعي) وفي فرنسا وفي كينيا وفي المجلثة يضمّنون مفهوم المجتمع المدني مثلا المضمون نفسه وذلك بالرغم من أن الجميع يرددونه صباح مساء. وقد يكون لبعد القسوط عن البيئة الشامية المصرية التي تشعب الجدل الفلسفي فيها أثر في اتجاههم إلى اعتناق هذا المذهب القريب من الفطرة.

وعندما سيتمكن الوندال مثلا من حكم شمال افريقية طيلة قرن من الزمان (429-533) فإنهم سوف يفرضون هذا المذهب فرضا فلا ينقرض إلا

Havenith, les arabes -4

Gaudefroy-Demourbynes et autres: L'Islam et la politique contemporaine, 1925, p: 10. -5

Paul Lemerle: Histoire de Byzance, p: 19. -6

بانقراضهم. على أن أثره قد يكون بقي حيًا عند جماعات من البربر فسهل عليها اعتناق الاسلام.

ويكاد المرء يستغني عن القول ان المسيحية السنية في بيزنطة وروما وغيرهما من مراكز النشاط الديني المسيحي لا يمكن أن تقر موقف الأريوسيين. أما قسطنطين فقد كان كرجل سياسي أكثر انشغالا بتأثير هذه الانقسامات الدينية على قوة الدولة لذلك دعا إلى عقد مجمع مسكوني (Oecuménique) أي عالمي نسبة إلى المسكونة أي الأرض في نيقية (Nicée) سنة 325 اعتبر أول مجمع مسيحي عالمي للبت في هذه القضية. وقد انتهى المجمع إلى الإقرار أن "الابن هو من طبيعة الآب" أي إلى إدانة الأريوسية.

لقد كان لهذا الحدث أهمية بالغة إذ أنه من ناحية أدان الأريوسية التي لم تكن مجردة تعبير عن رأي ديني تقول به أقلية، بل كان تعبيراً عن "قراءة" للدين ضاربة في الفكر الفلسفي القريب من الطبيعية ولذلك فإن هزيمتها الرسمية سنة 325 لم تكن إلا هزيمة مؤقتة إذ كان يعتنقها القوط وستكون في بيزنطة نفسها مراكز قوى أريوسية، بل أن الامبراطور فالنس Valens (364-378) خليفة ابن قسطنطين نفسه سيعتنق هذا المذهب إما عن إيمان وإما بحجارة للضغط القوطي. من ناحية ثانية حدد هذا المجمع بشكل فظ العلاقة بين السلطة الزمنية (الامبراطور) والروحية (الكنيسة) تحديداً يخضع المجال الديني لمصلحة الدولة:

فأهمية المجمع ليس مردها فحسب إلى انه وهو يصوغ لأول مرة في تاريخ الكنيسة عقيدة الثالوث قد وضع أسس الديانة المسيحية العقدية ولكن يرد كذلك إلى أن السلطة الامبراطورية قد تدخلت لأول مرة في مسألة عقدية فتحددت انطلاقاً من ذلك كل العلاقات اللاحقة بين السلطين الزمنية والروحية. وإذا أؤكد على لفظ الزمنية فذلك لأن قسطنطين تدخل في المسألة على اعتبار أنه سلطة زمنية فحسب بل يمكن القول أنه تدخل كسلطة بوليسية إذ لا يبدو أنه كان يهدف إلى غير الحفاظ على السلم والنظام داخل الكنيسة المسيحية التي أصبحت جهازاً من الأجهزة الهامة في الامبراطورية⁷.

Paul Lemerle: Histoire de Byzance, p: 19.-7

وإضافة إلى هذين الناحيتين، دفع اتجاه السلطة الزمنية إلى ضبط مجال النشاط الديني إلى تحديد منزلة كل مركز من المراكز الدينية في الامبراطورية فتزلت كل من الاسكندرية وانطاكية في المنزلة الأولى وتلتها القدس في المرتبة. وإذا كانت القسطنطينية قد "تعالّت" عن هذا التنافس فإن وضعها في بيزنطة مقرر إقامة قسطنطين كان يفي بالطلب. ومن الطبيعي أن لا تنظر روما (وتابعها قرطاج) بعين الرضا إلى هذه المرتبة التي ستكون لها نتائج خطيرة على العلاقات الدينية بين مراكز المسيحية في القرون اللاحقة⁸. فهل يمكن الحديث هنا، والحال على ما وصفنا عن "أعمال قسطنطين" باللغة التمجيدية التي يستعملها كثير من الديانين واللائكيين عندما يتحدثون عن أعمال قسطنطين.

إن استعراض أهم الأحداث في عصر خليفته في بيزنطة كونستنس (337-361) وجوليان الجاحد (361-363) وفالنس (364-378) وفي رومة كونستان الأول (337-350) وحلفائه، حريّ، إضافة إلى ما استعرضنا من حصومات دينية بتقييم هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الامبراطورية الرومانية ومن ثم بيان ردة فعل تيودوس (379-395) على ما بدا له من انهيار روماني شامل. ففي ايطاليا قتل فالنس وهو يحاول التصدي لضغط الفيزيغوط أما أخوه فالنتيان الأول (364-375) فقد اضطر إلى الإقامة بميلانو قريبا من منطقة ضغط البرابرة الجرمانيين ولم يتمكن إلا بصعوبة ولفترة وجيزة من صدّ هجماتهم وسيقتل أحد الضباط الافرنج خليفته فالنتيان الثاني (375-392) في محاولة لفرجة الامبراطورية.

أما في الشام فالمصادر تتحدث عن ضعف روماني سمح بتمرد أميرة عربية لا يشبهه إلا ما حدث قبل قرن في تدمر على عهد زنوبيا؛

فقد اعلنت ماوية التي كان زوجها حليف الامبراطور فالنس (364-378) بعد أن ترملت بين 373 و 374 الحرب على الرومان وانتصرت عليهم في فلسطين وفينيقيا

بل أنحضعت الشمال الشرقي المصري وهزمت قائدا رومانيا دعي لتعزيز الجيش الروماني واضطرت رومة إلى اجراء مفاوضات معها تحقيقا للسلام⁹.

إنه يمكننا أن نصدر ما يشبه القانون السياسي فيما يتعلق بوضع العرب المحكوم بتوازن القوتين العظميين. فكل ضعف يلحق احدهما أو يلحقهما معا تنجر عنه حالة فوضى في الجزيرة العربية. ولا يوجد استثناء لهذه القاعدة إلا عندما تمكن النبي والقائد السياسي محمد في القرن السابع من تهيئة العرب لاستغلال نجاح لضعف القوتين العالميتين فأحلوا محلها الدولة العربية الإسلامية.

وتبعاً لذلك يمكن ان نستنتج أنه وقد وصل وضع الرومان في الشام إلى حد تمكن فيه أميرة عربية تابعة لهم من التمرد عليهم والحاق الهزائم ببعض كبار قادتهم العسكريين لا بد أن يكون قد حدث ما يشبه ذلك في اليمن.

وفعلاً فإن اليمنيين سوف يستغلون هزائم الرومان في الشام وما انجر عنها من تقلص دعم الرومان للحبشة الحليفة، لإعلان ثورتهم على الأحباش والانتصار عليهم سنة 375 بقيادة ملكي كرب بل سيرتدون عن المسيحية مدفوعين بنوع من "الوطنية" لأن هذا الدين ارتبط في أذهانهم بصورة الغزاة الأحباش. فقد توجه خليفة ملكي كرب، أبو كرب أسعد (ب- 425) سنة 400 "إلى المدينة (يثرب) لكي يتهود وكانما كان مدفوعاً إلى ذلك برغبة في مناوأة الدين الجديد الذي دانت به الحبشة عدو بلادهم وخصمها العنيد"¹⁰.

إن حالة الانهيار الروماني الشامل نهاية القرن الرابع كان يمكن أن تمثل فرصة تنتهزها الامبراطورية الساسانية لقضم أجزاء شاسعة من منطقة النفوذ الروماني لو كانت على قدر من القوة يسمح بذلك ولكنها لم تكن كذلك إذ كانت كالرومان تشكو انخراماً داخلياً ورغم هذا الوضع المتردي في الدولتين فإنهما لم تكفا عن الصراع طيلة هذه الفترة.

Havenith: Les Arabes..., p. 52 -9

10- النجار، علاقة... ص 13.

لقد ورث سابور الثاني (310-379) معاصر قسطنطين، المشهور عند العرب بـ"ذو الأكتاف"، عرشاً ساسانياً لا يذكر كثيراً. بما كانت عليه الدولة الساسانية طيلة نصف القرن الذي حكم فيه اردشير وسابور الأول. وقد تجلّى هذا الوضع حتى في امتداد فترة حكم من خلفوا هذين الشاهين المؤسسين: فإذا كان سابور قد حكم البلاد ثلث قرن فإن خلفاءه الخمسة هرمرز (272-273) وبهرام الأول قاتل ماني (273-276) وبهرام الثاني (276-293) ونرسيس (293-302) وهرمرز الثاني (302-309) لم تتجاوز فترة حكمهم أجمعين فترة حكم سابور الأول بكثير.

وقد زاد الوضع سوءاً أن سابور الثاني لم يكن وهو يتسلم الحكم إلا طفلاً في وصاية أمه التي كانت تسير شؤون الدولة مستعينة بكبار رجال البلاط الساساني الذين تركزت سياستهم على الدفاع عن حدود الامبراطورية المهددة من الجهات الأربع. ففي الشمال والغرب اشتد الضغط الروماني (على الرغم من ضعف الدولة الرومانية) وتعددت وجوهه بعد تنصّر الدولة فأعلن ترديدات (294-324) ملك أرمينية استقلال بلاده عن الساسانيين بعد أن اعتنق المسيحية فضمن دعم الرومان. وفي الشرق اشتد ضغط الترك على بلخ (بأكتريان). أما في الجنوب فقد تقلص دور إمارة الحيرة نتيجة ضعف الدولة الساسانية الحامية وانجرّ عن ذلك ضغط بدوي عربيّ على الحدود الساسانية. كتب ابن خلدون في ذلك:

وشاع في اطراف المملكة أنهم (يقصد الساسانيين) يولّون صبياً في المهد فطمع فيهم الترك والروم. وكانت بلاد العرب أدنى بلادهم وهم أحوج إلى تناول الحبوب من البلاد لحاجتهم إليها. بما هم فيه من الشطط وسوء العيش. فسار منهم جمع من ناحية البحرين وبلاد القيس ووحاظة فأناخوا على بلاد فارس من ناحيتهم وغلّبوا أهلها على الماشية والحرث والمعاش، وأكثروا الفساد ومكثوا في ذلك حيناً ولم يغزهم أحد من فارس ولا دافعهم لصغر الملك¹¹.

11- ابن خلدون، العبر، ج 3 ص 347-348.

هذا الخطر الذي يتهدد الدولة الساسانية على حدودها الأربعة هو الذي حدّد سياسة سابور الثاني منذ تسلم الحكم بصورة فعلية أي في ثلاثينات القرن الرابع فشرع في دفع هذا الخطر مبتدئاً بالعرب البدو لقربهم من عاصمته: وكان أول شيء ابتدأ به شأن العرب فجهز إليهم العساكر وعهد إليهم أن لا يبقوا على أحد ممن لقوا منهم. ثم شخص بنفسه إليهم وغزاهم وهم غازون ببلاد فارس فقتلهم أبرح القتل وهربوا أمامه وأجاز البحر في طلبهم إلى الخط وتعدى إلى بلاد البحرين قتلاً وتخريباً ثم غزا بعدها رؤوس العرب من عيم وبكر وعبد القيس فأتىهم فيهم وأباد عبد القيس ولحق فلهم بالرمال ثم أتى اليمامة فقتل وأسر وخرب، ثم عطف إلى بلاد بكر وتغلب ما بين مملكة فارس ومناظر الروم بالشام فقتل من وجد هناك من العرب وطمّ مياههم¹²

وتذكر بعض كتب الأدب أن سياسة سابور الثاني إزاء العرب كانت منتظرة لم تفاجئ المعاصرين إذ أن كل ضعف في الدولتين الساسانية والرومانية ينجر عنه مدّ عربي نحو مناطق الشمال الخصبة فهذا لقيط بن يعمر الشاعر الأيادي الذي كان في خدمة الساسانيين يبعث على ما تروي الأخبار القديمة إلى قومه قبل الواقعة محذراً:

يا أيها الراكب المزجي مطيته إلى الجزيرة مرتاداً أو منتجعاً
لا تلهكم إبل ليست لكم إبل إن العدو بعظم منكم قرعاً

إن اتساع حملة سابور تؤكد ما ذهب إليه المؤرخون من أن مملكة الحيرة فقدت دورها منذ موت امرئ القيس بن عدي في النمارة بعد انضمامه إلى الرومان (ت 328) ولن تستعيد هذا الدور إلا في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس على عهدي النعمان السائح (ت 418) وابنه المنذر (418-452). هذا الفراغ هو الذي عبر عنه ابن خلدون عندما كتب:

ولي مكانه (يقصد امرئ القيس) أرس بن قلام العمليقي (...) ثم سار به جمعها بن عتيك بن لحم فقتله وولي مكانه (...) ثم ملك...¹³

12- المرجع السابق ص 348

13- المرجع السابق ص 349

هكذا حاول سابور الثاني نشر سلطة الساسانيين من جديد في الخليج وما بين النهرين حتى الجزيرة. ولقد ضمّ البحرين إلى ممتلكاته ولكنه لم يتمكن من إخضاع عرب هذه المناطق إخضاعاً تاماً إذ سنجدهم ينضمون إلى يوليانوس الجاحد (361-363) عندما هاجم سابور الثاني "لثأرهم عند سابور بمن قتل منهم (...). فأحجم عن اللقاء وصحبه العرب ففضوا جموعه وهرب في فلّ من عسكره"¹⁴. بل إننا نعثر على وقائع لهم ضد الساسانيين على عهد خلفاء سابور الثاني، أردشير الثاني (379-383) وسابور الثالث (383-388) الذي كانت له مع إياد حروب ذكرها شاعرهم في قوله:

على رغم سابور بن سابور أصب حت قباب إياد حولها الخيل والنعم

إنه لا سبيل إلى فهم انكفاء النفوذ الساساني في بلاد العرب إلا بالتذكير بما كانت تتعرض له الامبراطورية من ضغط على كل الحدود. وإذا كانت الحروب الرومانية الساسانية المتتالية (345، 363) ستفضي إلى عقد صلح بين سابور الثاني وجوفيان (363-364) يمكن الدولتين من التفرغ للدفاع عن حدودهما، فإن النشاط الروماني لخلق الاقتصاد الساساني لن يتوقف وقد اتخذ له أثناء فترة الصلح وسيلة جديدة تتمثل في التسلل إلى اليمن عن طريق الأحباش المونوفيزيين. وإذا كان اضطراب سابور الثاني الدفاع عن الامبراطورية الساسانية على كل الجهات وسعيه إلى منع اكتمال عملية التطويق الاقتصادي هما اللذان يفسران إلى حد كبير ارتقاء اليد الساسانية إزاء قبائل البدو العربية ونتيجة لذلك ضعف إمارة الحيرة.

وإذا كان هذا وضع سابور الثاني الذي "كان يخلع أكتاف العرب ولذلك لقبه العرب ذو الأكتاف"¹⁵ فبالإمكان أن يتصور المرء وضع خلفائه أردشير الثاني (379-383) وسابور الثالث (383-388) وبهرام الرابع (388-

14- المرجع السابق، ص 350.

15- المرجع السابق، ص 349.

399) الذين كانت فترة حكمهم فترة باهتة مقارنة بفترة حكم سابور. فلقد حكم الأول البلاد مدة أربع سنوات كانت مثالا للضعف من ناحية ولردود الفعل الدينية على سياسة تيودوس التبشيرية من ناحية ثانية. أما سابور الثالث فقد حكم البلاد خمس سنوات اتسمت بالضعف كذلك وكان مصيره القتل. ولم يختلف مصير بهرام الرابع عن مصير أخيه فضربا بحياتهما مثالا واضحا عن الفرق الشاسع بين ما كان عليه أبوهما سابور من قوة وهيبة وامتداد فترة حكم وما كانا عليه من ضعف وقصر فترة حكم بل ضربا مثلا على شبه القاعدة التي تقول إنه ما امتد سلطان ملك قاهر في الزمن إلا قصر ذلك من سلطان خلفائه لأن الحكم القاهر الطويل لا يسمح بنمو نبت سياسي حنكته التجربة فيرث الحكم وينميه. لذلك لن يستقر الحكم الساساني إلا على يد يزدجرد الأول (399-420) هذا الذي تسميه العرب "يزدجرد الأثيم" وقد لا يكون له من "الأثم" غير سعيه إلى تحديد الدولة فاستقرت على عهده وباستقرارها عادت الحياة إلى إمارة الحيرة فبرزت شخصية النعمان الأكبر (ت 418) المشهور باللقاب "الأعور" و"السائح" و"صاحب الخورنق" وكذلك شخصية ابنه المنذر (418-452) الذي كان له شأن في سياسة إيران الداخلية (تولية بهرام الخامس) والخارجية (مشاركته في حرب الروم 421-422). وخمدت غزوات العرب البدو في المنطقة إلى حين. وإذن فإنه يمكن القول أن حكم كل من تيودوس ويزدجرد لم يكونا غير محاولة لاعادة التوازن المفقود إلى كلا القوتين العظميين.

الفصل الرابع

هيمنة القوى النابذة

إن حالة الانهيار الروماني الشامل نهاية القرن الرابع الميلادي هي التي تفسر سياسة تيودوس (379-395) الزمنية والدينية المتشددة. فقد حاول منذ أن تولى الحكم سنة 379 أن يحد من تردّي هذا الوضع فحافظ على التشريع في جزئي الامبراطورية الغربي وعاصمته روما والشرقي وعاصمته بيزنطة. ولكنه وزّع الحكم في الجزئين على ابنه هونوريوس (395-423) في روما وملحقاتها الافريقية، محاصة وأركاديوس (395-408) في القسطنطينية وملحقاتها الشامية والمصرية.

هذا التثبيت بوحدة التشريع في جزئي الامبراطورية عاضده تشدّد تيودوس في الحفاظ على الوحدة الدينية إذ كان هذا الامبراطور يؤمن إما عن إيمان صادق أو عن سياسة (جريا على القاعدة التي سنّها قسطنطين) أن لا حق لغير الدولة في صياغة طريقة تفكير المواطنين فأمر بهدم كل ما تشمّ منه رائحة الوثنية واضطهد الفرق الدينية غير الارثوذكسية ودعا إلى عقد مجمع في القسطنطينية سنة 381 لم يكتف فيه بتأكيد ما أقر في مجمع نيقية من تساوي الأب والأبن بل اضاف إليهما تساوي الروح القدس ورفع من شأن أسقف القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الأولى. إن صورة تيودوس تبدو عند كثير من المهتمين بهذه الفترة قريبة من صورة الدياني المتعصب المدفوع بدافع التقوى وحده إلى اضطهاد المذاهب غير السنية. فهذا غوستاف لوبون يشدد على تعصبه الديني:

عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي في القسطنطينية امر الامبراطور تيودوس Théodose سنة 389 بهدم كل المعابد وأنصاب آلهة مصر القديمة وكل ما يمكن أن يذكر بها.¹

G. Lebon: La civilisation des Arabes, p. 156 -1

ومثل هذا التفسير يخفف من تأثير ضغط العامل السياسي الدافع إلى مثل هذه الإجراءات ويدفعنا إلى التحفظ إزاءه. فقد كان تيودوس وهو يتولى الحكم يرى ضغط الحزب القوطي الأرياني الذي ينفي ألوهية المسيح يطال البلاط الامبراطوري ذاته حتى ان فالنس (364-378) الذي سبقه في الحكم اعتنق الأريوسية دون أن يقيه ذلك لا من الموت بأيدي فرع منهم هو الفيزيغوث ولا دون اشتداد ضغطهم على الجزء الغربي من الامبراطورية. أما فالنتيان الثاني (375-392) الامبراطور في روما فقد لقي مصرعه على يدي أحد جنرالاته من الافرنج المتسلطين على البلاط وكان على تيودوس نفسه أن يتدخل سنة 394 لإعادة الأمور إلى نصابها.

كما ان الشمال الافريقي التابع لغرب الامبراطورية الرومانية المتهاوي كان يعصف به في هذه الأثناء وفي نوع من الوطنية الدينية المذهب البيليجياني الذي لم يتمكن جدل القديس أوغسطين ضده من الحد من انتشاره. والبيلاجيانية باعتقادها أن الجهد الفردي ابتغاء الخلاص يتنزل إذا ما ما قورن بـ"النعمى" المنزلة الأولى لا يقود في نهاية الأمر إلا إلى التقليل من شأن الوسائط بين الله والانسان ومنها الكنيسة. والتقليل من شأن الوسائط لا يعني سياسيا إلا نوعا من الاستقلالية.

بهذا الفهم وحده للعلاقة بين الدين والسياسة يمكن أن نفسر شدة اجراءات تيودوس في معاملة المذاهب النابذة فهو في سلوكه لا يعدو أن يكون معبرا عن السياسة التي سنّها قسطنطين وأفضت إلى هذه التبعية الدينية للدولة المميزة لما سيمسى فيما بعد بالارثوذكسية والتي ما زالت الكنيسة الروسية خليفة بيزنطة على ما تدّعي مثالا عليها في القرن العشرين:

وفعلا أعلن تيودوسيوس أن لا تسامح في الدين: إن للدولة دينا إجباريا يحدّد مقوماته الامبراطور ويفرضها على رعاياه. وبذلك أصبحت الارثوذكسية والمرطقة مسادة سياسية بقدر ما هي دينية أو بالأحرى اختلطت وجهتها النظر ببعضهما البعض. وهكذا تأسس فيما يتصل بالعلاقات بين الكنيسة والدولة المذهب

الذي سيكون من ذلك الوقت فصاعداً مذهب الامبراطورية البيزنطية والذي يطلق عليه أحياناً وإن بتعبير غير ملائم إسم القيصرية البابوية.²

ذلك هو ذوبان الدين في الدولة. وعندما اعتبر "لوميرل" أن إطلاق عبارة القيصرية-البابوية على الارثوذكسية في غير محله فما ذلك إلا لأن "أسقف" روما لن يقبل بتوق الدولة البيزنطية إلى الهيمنة على الكنيسة وسيقود هذا الرفض إلى نشأة "البابوية". إن كل مجهودات تيودوس للحد من انهيار الدولة شرقاً وغرباً ومغرباً وتوحيد المواطنين دينياً ستذهب سدى إذ بلغ الداء عظام الامبراطورية خاصة في الجزء الغربي والمغربي منها.

فعلى عهد خليفته في روما هونوريوس (395-423) اضطّر الرومان إلى الجلاء عن انكلترا (407) واشتدّ ضغط الافرنج الموريفيين على بلاد الغال ونهب الأريك ملك الاستروغوط روما سنة 410 وسقطت اسبانيا في أيدي الفيزيغوط (410) واكتسح الوندال شمال افريقيا وأسس جنزيريك Genseric أول ملوكهم (428-477) دولة اريوسية تضطهد المسيحية السنية دامت قرناً من الزمان ولم تستطع حملات القديس أوغسطين الملتهبة على الهرطقات أن تمنع هذه النظريات الدينية المعادية بصفة عامة لفهم تألهي للمسيح من التغلغل في مناطق قبائل لواتة والفراشيش وقبائل الأوراس النوميديّة البربرية البعيدة عن مراكز المدن المتكثّكة كقرطاج وبونه وطنجة.

أما على عهد خليفة تيودوس في بيزنطة أركاديوس (395-408) وتيودوس الثاني (408-450) فقد حدث في الشام ومصر من الانقسام الديني ما يعدّ الخطر الأريوسي الذي اجتهد تيودوس في محاربته أمراً ليس بالخطورة المزعومة إذ كان معتنقو الأريوسية أساساً من برايرة الجرمان أما الانقسام الجديد فقد مسّ ما أصبح يمثل ما تبقى في واقع الأمر من الدولة الرومانية أي ما سمي فيما بعد بالشرق العربي وهو أثرى أجزاء الامبراطورية اقتصاداً وثقافة.

فقد وجدت مدرستا الاسكندرية وأنطاكية في هذه الفترة الحرجة من حياة الامبراطورية التي يصعب فيها الفصل بين ما هو هرطقة دينية ونزعة

P. Lemerle: Histoire de Bysance, p 38. -2

انفصالية، فرصة جديدة للصراع أثناء حكم تيودوس الثاني. هذا الصراع لم يتمثل هذه المرة في الموقف من طبيعة المسيح (هل هي من طبيعة الأب أم لا) وإنما في كيفية اتحاد الطبيعتين الالهية والانسانية في شخص المسيح وذلك بمناسبة إعلان احد بطارقة القسطنطينية المتأثرين بالمنهج الانطاكي المشبع أرسطوطالية وهو نسطوريوس (428-431) عن اعتقاده أن طبيعتي المسيح الالهية والبشرية مستقلتان عن بعضهما البعض وأن الجانب الانساني فيه غالب على ما عداه إذ ليس المسيح في نهاية الأمر إلا بشرا تحول إلها. هذا الرأي اعتبره المونوفيزيون في الاسكندرية صياغة جديدة للأريوسية التي قاوموها بضراوة. وقد دعم موقفهم من نسطوريوس إدانة أسقف روما سيليستين الأول (422-432) النظرية النسطورية سنة 428 فطالب أسقف الاسكندرية كيريلوس (Cyrille 444) أسقف الاسكندرية نسطوريوس إما بالتراجع فيما ذهب إليه وإما بالاستقالة وبذلك فتح الطريق لخصومة دينية سياسية لم يجد الامبراطور تيودوس الثاني سبيلا إلى تطويقها في غير الدعوة إلى عقد مجمع مسكوني ثالث هو مجمع أفسس (441) للبت في المسألة.

إن ما يبدو قضية دينية فحسب ليس في الحقيقة كذلك. فالقسطنطينية هي عاصمة الامبراطورية ومركز الثقل الفعلي أما روما فالانهيار السياسي فيها قد أصبح واضحا منذ بداية القرن وستسقط روما ذاتها سنة 476 تحت ضربات البرابرة فلا بدّ عندئذ من اجتهاد الكنيسة فيها لملء الفراغ وأولى الخطى نحو هذا الدور الجديد هي تحقيق هيمنتها على بقية الكنائس في بيزنطة وانطاكية والاسكندرية.

أما الاسكندرية فلقد نزّها مجمع القسطنطينية سنة 381 المنزلة الأولى في المرتبة الكنسية فلا مجال ومنزلتها الرسمية على ما هي عليه أن لا يكون لها رأي حاسم في المسألة خاصة وإن الداعية إلى المذهب الجديد هو اسقف القسطنطينية. إن هذا الفهم للقضية هو الذي يفسر انعقاد ما يشبه التحالف بين هذه الكنيسة وتلك في فترة ما وانحلاله في أخرى. ففهم المسألة دينيا فحسب لا يفي بالحاجة إلى الوضوح الكافي.

وعندما أدان مجمع افسس نسطوريوس وأقاله من أسقفية القسطنطينية لم يزد القضية إلا تعقيدا. فانتصار المونوفيزية (مصر) على الارويسية (بيزنطة) ليس انتصارا للارثوذكسية الرسمية في نهاية الأمر ولا هو انتصار لروما إذ أن المونوفيزية (حتى إن أخذنا بالجانب الديني وحده) وهي "تلحّ على ضرورة الغض من أهمية طبيعة المسيح الانسانية لم تعد بعيدة عن القول أن ليس في المسيح غير طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية. هذه هي المونوفيزية التي هي في بعض معانيها نقيض الهرطقتين النسطورية والارويسية"³. ولذلك عندما أخذ بعض رهبان القسطنطينية بالمونوفيزية تحول النزاع إلى نزاع بين روما والاسكندرية: روما تندّد على لسان البابا ليون الكبير (440-461) بالمشهد المونوفيزي واسقف الاسكندرية الجديد ديوسكوروس يشجّع عليه. ولم يجد الامبراطور البيزنطي كعادته، وسيلة للحسم في القضية غير الدعوة إلى عقد مجمع جديد في افسس سنة 449. وكما حدث في المجمع السابق تمكّن المونوفيزيون من ضمان النصر لمذهبهم فاتهمهم بخصومتهم باستعمال وسائل أبعد ما تكون عن السلوك الاخلاقي القويم وسمّوا ما وقع في هذا المجمع "ملصة افسس" (أي لصوصية افسس) رغم أن الامبراطور نفسه، حرصا منه على الاحتفاظ بولاء مواطنيه في المشرق زكّى ما أسفر عنه هذا المجمع. ومات تيودوس الثاني سنة 450 والنزاع الديني على أشده، فبادر خليفته الامبراطور مارقيان (450-457) بالدعوة إلى انعقاد مجمع مسكوني رابع في خلقدونية (451) حضره سفراء عن البابا وانتهى بنقض قرارات "ملصة افسس" وبإقالة ديوسكوروس الاسكندري وتحرير نص من وحي البابا في روما يعرّف المسيح بأنه "واحد في طبيعتين" ويدين المونوفيزية. وإذن فإنه ما أن انتصف القرن الخامس حتى تحددت معالم القطيعة النهائية بين مختلف المذاهب المسيحية:

-استعانت المونوفيزية الاسكندرية (الشرقية) في مرحلة أولى بروما (الغربية) لإدانة النسطورية (الشرقية).

-فرضت روما في مجمع خلقدونية وجهة نظرها فأدانت المونوفيزية.

3- المرجع السابق ص، 38.

وهكذا كانت الغلبة في النهاية لروما رغم انهيارها السياسي ولعاصمة الامبراطورية البيزنطية القسطنطينية وانهزمت "مدارس المحيط (الاسكندرية، انطاكية) فزاد ذلك من تفتتها إذ شهدت هذه الفترة بالذات داخل منطقة التأثير الانطاكي ولادة مذهب ديني حول مار مارون (أي القديس مارون) في مدينة صور بدا محاربا للنسطورية والمونوفيزية معا وانتهى بتبني وجه من الكاثوليكية لن يكف وقد طعمه "بالفينيقية" عن نصرته طيلة خمسة عشر قرنا.

ولعل هذا التفتت الذي شمل المنطقة التي ستسمى العربية فيما بعد كان واحدا من أسباب سرعة التمدد العربي الاسلامي في القرن السابع إذ رحبت أغلب المذاهب غير السنية بالدولة الجديدة نكالة في مضطهديها الاورثوذكس وأملا منها في أن يكون الحكم العربي الاسلامي، ولقد كان كذلك إلى حد كبير طيلة حياته التي امتدت ثلاثة قرون، أكثر تسامحا دينيا.

إن القول بهذا العامل الذي ساعد العرب المسلمين في مشروعهم السياسي العسكري الديني يعني في نهاية الأمر أن ما رأى فيه مرقيانوس انتصارا إنما كان على الأمد البعيد انتصارا للكاثوليكية وهزيمة حقيقية للارثوذكسية. وفعلا فإن بيزنطة بعد أن خسرت مواقعها في البلقان وانبجلترا وفرنسا وإيطاليا وشمال أفريقيا أصبحت مهددة داخليا في ما تبقى لها من نفوذ في الشام ومصر إذ رأت مدرسة الاسكندرية فيما حدث في مجمع خلقدونية أكثر من مجرد صراع ديني ظرفي إذ يبدو أن كنيسة مصر تخلت في هذه الفترة عن اللغة اليونانية لتستعمل القبطية.⁴

وفقد مصر يعني في الحقيقة فقد الشام إذ أن مصر منذ عهد الفراعنة⁵ (وقبل ذلك على ما نعتقد رغم فقدان المصادر) وحتى آخر تجربة سياسية سنة

4- المرجع السابق، ص 41 ونلاحظ هنا العلاقة بين قبط و (E/gypte).
5- الفراعنة: يطلق في مصر القديمة على قصر الملك عبارة "الدار الكبرى" التي تسمى بالمصرية parāa والتي تحولت بتأثير الأغريقية إلى "فرعون" الذي أصبح اسما فضفاضا يدخل ضمنه كل ملك مصري سواء كان مينس من السلالة الأولى (2900 ق.م) أو كان مثلا رمسيس الثاني الشهير (1235-1298 ق.م) معاصر الزعيم اليهودي موسى. أنظر الصفحة 175 من كتاب:

1958 كانت شامية الاتجاه لا يتجاوز بعدها الافريقي السودان والحبشة والصومال فهي افريقية جغرافيا شرقية الانتماء وحدودها الثقافية الافريقية تشق ليبيا و لا تتجاوزها ولذلك كانت ليبيا ممزقة بين المشرق والمغرب. إن هذا هو التفسير الذي نراه أكثر وجاهة لهيمنة المونوفيزية حتى في بوادي الشام رغم بعد تراث القوم عن كل تجريد وجنائزية.

لقد كان مارقيان وهو ينصر روما على ولاياته الشرقية مدفوعا بأمل واه في امكانية الحفاظ على الجزء الغربي من الامبراطورية الرومانية وعلى شمال افريقيا الضائع وقد اثبتت الأيام، بعد أن فرط في الشام ومصر، ما في سياسته من بعد عن الواقع.

كتب ديهل عن تمكن الوندال من قرطاج وشمال افريقية:

جهزت روما والقسطنطينية أثناء القرن الخامس حملات قوية كثيرة ضد المملكة الوندالية الخطيرة التي كانت أساطيلها تهدد بلا هوادة كل شواطئ البحر المتوسط. فعلى التوالي حاول ماجوريان Majorien (457-461) أحد أكثر من جلس من أواخر الأمراء على عرش روما حزمًا وكذلك ليون الأول أمبراطور الشرق (457-474) بعده ببضع سنوات أن يقوض حكم جنزيريك (428-477). غير أن محاولتهما لم تكللا بالنجاح. ففي سنة 460 لم يتح للأسلحة المجمعة في موانئ إسبانيا حتى البحار. أما حملة 468 فقد كانت بدايتها تبشر بالخير ولكنها انتهت في مياه قرطاج بكارثة مشهودة ذهبت لسنوات طويلة بالأسطول البيزنطي وبمالية امبراطور الشرق واضطر زينون (474-491) خليفة ليون الأول تحت وقع هذا الفشل أن يعقد سنة 476 في اللحظة التي كان فيها الغرب يسقط نتيجة ضربات اردواكر Odoacre صلحا أبديا مع جنزيريك.⁶

غير أن وهم مرقيان لم يكن سياسيا فحسب بل كان دينيا، فروما نفسها كانت تجهد منذ بداية القرن في مقاومة هيمنة بيزنطة الدينية عليها وما اجتهد اوغسطين فيما يتعلق بهذه المسألة إلا مساهمة في كسر الطوق السياسي

Etienne Drioton et Jacques Vandier: l'Égypte des origines à la conquête d'Alexandre, Paris, 7ème éd. 1989.

كما تجدر الإشارة إلى أن الأمثلة عن الخلط بين الأعلام والألقاب كثيرة في كتب التاريخ القديمة ومن ذلك ذكر قيصر على أنه علم وذكر بحيرا والحال أن بحيرا تعني الراهب بالسريرية.

Charles Diehl: L'Afrique Byzantine, vol. 1, s.d., p. 4 -6

البيزنطي عليها. "فمملكة السماء" La Cité de Dieu (413-417) كانت تسعى إلى عرض تاريخ الانسانية منذ نشأتها إلى القرن الخامس. وهي لا تخضع في سعيها هذا ما يمدّها به التاريخ الوثني (الاغريقي واللاتيني) والعهد القديم والجديد على حدّ سواء من معطيات إلى معايير عقلية. إن غاية هذا السعي هي اثبات وجود رهان هو وجود الله، وهو أكثر أهمية بكثير من رهان البشر المحكوم بالتقلبات التي تميز مملكة الناس. هذا الرهان الالهي يندرج ضمن مسار جماعة المؤمنين الروحي وضمن مسار الكنيسة: إن خلق الكون والخطيئة الأصلية والحلف الالهي اليهودي والقربان وتأسيس الكنيسة، كل هذه الأحداث ليست إلا مراحل ضمن هذا المسار الروحي الذي إذا كان بإمكان الانسان أن يتبين فيه أثر العناية الالهية فيأمكنه كذلك أن يسهم فيه بما يقدم من عمل ملائم للعقيدة..... الغبطة. وإذن كان الفكر الاغريقي قد اتخذ له من الدائرية مثالا للزمنية فإن أوغسطين قدم فهما للزمن على أنه تاريخ محطّي ذو بداية (ابتداء العالم) ونهاية (البعث) وأنه هو تاريخ الانسانية ذاتها. هذا التاريخ اتخذ شكل تاريخ انسان فرد يستند إلى أحداث فريدة ويتضمن معنى أي له وجهة وأن له دلالة في الان نفسه. وبهذا الفهم للزمنية يكون أوغسطين قد قدم النموذج الذي ستنسج على منواله لاحقا كل فلسفات التاريخ بما فيها تلك التي تعد أكثر الفلسفات قولاً بالمادية العلمية⁷.

إننا انضباطا للموضوع لن نتناول ما يتصف به التطور الأغسطيني من إمكانات حقيقية لتغيير نظرة الانسان إلى التاريخ ومن ثم إلى الحياة ولكننا على العكس من ذلك نؤكد على المنزلة التي نزل فيها أوغسطين الكنيسة بصفة خاصة والسماء بصفة عامة فلا سلطة زمنية بإمكانها أن تطال تعالي الكنيسة وتعالى السماء وهذا يعني أن على الامبراطور أن يشتغل بما له من صلاحيات في الجيس والاقتصاد... وأن يترك "ما لله" لنواب المسيح ممثلين في أساقفة روما. وفي ظل الفراغ السياسي في البلاد الغربية فإن مثل هذه الدعوة لا يمكن إلا أن تقود إلى تضخم دور الكنيسة الكاثوليكية الروحي في فترة أولى في كل البلاد

François Châtelet et autres: Histoire des idées politiques, 1982, p. 18. -7

الغربية الخاضعة للرايرة الجرمان الذين يشبهون على عكس المشاركة "الصفحة البيضاء" دينيا التي يمكن أن "تكتب فيها الكنيسة الكاثوليكية ما تشاء" وفي فترة لاحقة من هيمنة الكنيسة على السلطة الزمنية ذاتها. وبذلك لن يكون تاريخ البلدان الغربية اللاحق غير سعي السلطة السياسية لاستعادة ما كان لها من شأن على عهد الرومان الوثنيين.

ان زينون (Zénon) الذي سيتسلم الحكم وقد وصلت الامبراطورية الى هذا الوضع الخطير سوف يتفطن الى خطورة التفريط في بلاد الشام ومصر وسيعتق المونوفيزية سعيا منه إلى التقريب بين الدولة والمجتمع وسينجح الى حد ما في سعيه هذا. نقول إلى حد ما لأن حالة الانهيار هذه كانت كأنها ملازمة لطبيعة الدولة في هذا العصر كما كانت عامة تتجاوز الرومان الى دول أخرى معاصرة ومنها الدولة الساسانية الخصم واذا كان هناك فارق يستحق الذكر بين الأخطار التي تهدد الدولتين فهو يتمثل في نوع الجنس الذي كان يستعد للانقضاء على الدولة الساسانية اذ هو في الحالة الساسانية تركي لموقع ايران الاسيوي القريب من الاحتياطي البشري التركي الضخم الذي كان قبل هذه الفترة وأثناءها وبعدها (وسيجرب القريشيون ذلك طيلة حكمهم الذي دام ثلاثة قرون) يمثل الخطر الكامن سواء على الصين والهند أو على كل الدول التي تتأسس في الشرقين الأوسط والأدنى.

ولقد شهدت الامبراطورية الساسانية بعد حكم الاباطرة الثلاثة أردشير الثاني وسابور الثالث وبهرام الرابع المتسم بالضعف والاضطراب نهاية القرن الرابع عودة الى ما يشبه التجدد على عهد يزدجرد الأول (399-420) الذي بلغت مواقف المؤرخين منه حدّ التناقض الصارخ : ففي حين يمتدح المسيحيون قراره بمنح رعاياه سند 420 حرية المعتقد يميل المؤرخون المسلمون بحجارة للساسانيين المتأثرين بقتلته من رجال الدين الجوس الى رسم صورة قائمة له. كتب عنه ابن خلدون :

كان (يزدجرد الاثيم) فظا غليظا كثير المكر والخديعة، يفرغ في ذلك عقله وقوة معرفته، وكان معجبا برأيه، سيء الخلق، كثير الخدّة، يستعظم الزلة الصغيرة ويردّ

الشفاعة من أهل بطانته، متّهما للناس، قليل المكافأة، وبالجملة فهو سيء الاحوال مذموماً (...). واشتدّ على الاشراف بالاهانة، وعسى من دونهم بالقتل. وبينما هو جالس في مجلسه يوماً اذا بفرس عابر لم يطلق أحد امساكه قد وقف ببابه فقام اليه ليتولّى امساكه بنفسه فرمحه فمات لوقته لاحدى وعشرين سنة من ملكه"⁸.

إن بامكان المرء أن يستخرج مما كتب ابن خلدون، وبغض النظر عن الصبغة الخرافية التي تبدو في البعض منه، إشارات الى العداوة التي كانت طبقة الاقطاعيين ورجال الدين تكنّها ليزدجرد بعد أن "أشتد أمره على الأشراف بالاهانة، ومن دونهم بالقتل" فهذه الطبقة استغلّت فترة الضعف الفاصلة بين نهاية حكم سابور الثاني وبداية حكم يزدجرد الأول (379-399) لتتضم صلاحيات الدولة المركزية، سيبدو عداؤها أولاً في قتل يزدجرد وثانياً في سعيها إلى الحيلولة دون تولي ابنه بهرام غور الحكم (420-438).

فالرأي الأكثر وجاهة هو الذي يجب أن يعكس الصورة فيرى في فترة حكم يزدجرد وابنه بهرام (أربعين سنة) فترة استعادت فيها الدولة الساسانية البعض من قوتها السابقة ومن القرائن الدالة على ذلك الاجماع الحاصل حول استعادة الحيرة المحمية الساسانية دورها القديم على عهد النعمان الأكبر (ت 418) وابنه المنذر الأول (418-464) فاذا التحالف اللخمي - الساساني يتجاوز مجرد الولاء السياسي الى ما يشبه العلاقة الحميمة: "يظهر ذلك في الالقاب التي منحها يزدجرد النعمان الأكبر ("مكثر بهجة يزدجرد"، "النعمان الأكبر") على ما يقول كريستنسن وفي اختيار يزدجرد النعمان مربيّاً لابنه بهرام الخامس اذ نشأ هذا الملك الساساني "ببلاد الحيرة مع العرب، أسلمه أبوه اليهم فرّبى بينهم وتكلّم بلغتهم"⁹. وعندما قتل الاشراف الساسانيون يزدجرد واجتهدوا في تنصيب ملك على ايران من غير أبناء خصمهم القتيل قائد المنذر قوة مكونة من الايرانيين واللّخميين هدّدت المدائن وفرضت على الأشراف الساسانيين بهرام الخامس ملكاً.

8- ابن خلدون: كتاب العبر، ج 3 ص 353.

9- المرجع السابق، ص 353.

ولقد سار بهرام غور سيرة أبيه في التسامح الديني إزاء الرعايا على كره من رجال الدين المجوس، ومنح اللجوء السياسي إلى كل الديانين الخارجين عن أرثوذكسية بيزنطة وأشهرهم نسطوريوس الذي التجأ بعد أن أقاله مجمع أفسس سنة 431 من منصبه إلى إيران وأسس فيها الكنيسة النسطورية.

على أنه كان على بهرام الخامس كما كان شأن أسلافه أن يتصدى للضغط العسكري الخارجي ممثلاً في البيزنطيين وتابعيهم من الأرمن المسيحيين وفي المتبرهين من الهبطل على حدوده الشرقية وكذلك في البدو من العرب الذين تقوى شوكتهم بضعف الحيرة أي بضعف الدولة الساسانية ولقد حصل بهرام الخامس في حروبه على ما طلب من عون لخمى عربي ظهر خصوصاً أثناء غزو المنذر أمير الحيرة الروم سنة 421 بجيش مختلط لخمى إيراني.

وعندما مات بهرام الخامس وخلفه في الحكم يزدجرد الثاني (438-457) كانت المنطقة كلها تشهد مخاضاً ينبيء بتحويلات كبيرة فإضافة إلى الصراع التقليدي بين الساسانيين والترك والروم كان جنوب الجزيرة العربية يعيش فترة هلع وهجرة جارفة نتيجة انهيار جزء من سدّ مأرب:

في نقش يرجع تاريخه إلى ما بين عامي (449-450) ما يفيد أن سدّ مأرب قد أصيب مرتين بتلف شديد بسبب مياه الفيضان في عصر الملك الحميري (شرحبيل يعفر) ابن أبي كرب يسعد الذي كان يحكم البلاد في الفترة الواقعة بين 425-455.¹⁰

أما على المستوى غير العسكري والاقتصادي فقد مدّ تسامح بهرام الخامس التيارات الدينية المتصارعة في إيران بنفس حديد فازداد الجدل الديني انتشاراً ولم يعد مقصوراً على الفرق المسيحية بل تعداها إلى جدل مسيحي - مزدني. يورد كريستنسن في هذا السياق جدلاً دينياً بين أتباع زرادشت والمسيحيين فيؤكد الأولون "أن النصارى على خطأ عندما ينسبون الخير والشر إلى إرادة واحدة وعندما يؤكدون أن الله غيور وأنه خلق الموت وأدان الناس لا لسبب إلا لأن تينة واحدة سقطت من شجرة. إن غيرة كهذه لا توجد بين البشر فكيف يمكن

10- النجار - علاقة ص 13-14.

أن تكون بين الله والانسان. ومن أخطائهم (أي المسيحيين) كذلك أن الله الذي خلق السماء والأرض حلّ بالأرض وولد من عذراء تسمى مريم بعد أن كانت زوج رجل يسمى يوسف فالمسيح إنما هو في الحقيقة ابن له (فانتور) ولد اثر علاقة زنا. ثم ان رؤساء النصارى الروحيين يقولون أن أكل اللحم لا يعدّ اثماً وهم مع ذلك يعرضون عن أكله ويقولون أن الزواج مباح وهم مع ذلك يعرضون عن النظر إلى النساء ويقولون ان من يجمع الكنوز يرتكب اثماً ويشيدون غاية الاشادة بالفقر. هم يتغنون بالحن ويغضون من الازدهار. هم يزدرون الثروة ويفضلون الاشياء المبتذلة على الأشياء الثمينة. هم يمتدحون الموت ويحتقرون الحياة. هم يستنكرون ولادة الاطفال ويتحسّرون على العقم¹¹.

أمّا المسيحيون فيردون على الزرادشتيين :

"أننا لا نعبد مثلما هو شأنكم العنابر والشمس والقمر والرياح والنار، ولا نقدّم قرابين لكل هذه الآلهة التي تذكرون في الأرض والسماء، فنحن، وهذا ما تعلمنا، نعبد بئيات الالهة واحدا حقيقيا خلق السماوات والأرض وما تحتويان¹².

ان التناقض واضح بين الديانتين: ديانة تضرب عروقه في الأرض لأنها ظهرت في حضارة حاكمين هيمنوا على العالم القديم زمنا طويلا وديانة تدعو إلى قطع الصلة بالأرض لأنها ظهرت عند مضطهدين أصبح الانكفاء النفسي والعقلي ديدنهم.

ان المآخذ على المسيحية قريبة من المآخذ على النبي ماني (وكذلك على النبي الذي سيظهر بعد بعض العقود : مزدك) الذي قتل لأن في دعوته تهديدا للمجتمع الساساني القائم الذي تحتفل زرادشتيته بالجسد والأرض والولادة والخصب وتعاذي أيما معاداة كل مظاهر الزهد والتصوف والتشاؤم. ولذلك يمكن تكرار القول ان دعوة الشاعر : "لدوا للموت وابنوا للخراب" ليست من

Christensen - L'Iran... p. 282. -11

12- المرجع السابق ص 218.

الزرادشتية (المجوسية) في شيء اذ عناصرها مانوية مسيحية كما يمكن القول ان من أسباب ترحيب الساسانيين بالنسطورية تغليب هذا المذهب طبيعة المسيح البشرية على ما عداها ورفضه القول أن العذراء أم الله إذ هي أم عيسى فحسب بل يمكن القول ان "طبيعية" الزرادشتية هي التي تفسر احتفاء كثير من المفكرين الغربيين بها زمن هيمنة الوضعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خاصة على جزء غير قليل من البلاد الاوربية الغربية. لقد رأى يزدجرد الثاني في اتجاه الجدل هذه الوجهة المخاربة للدين الرسمي الساساني خطرا اضافيا على الدولة فعمد الى اتخاذ اجراءات ضد المسيحيين وحتى اليهود المقيمين في بلده والذين سيشهد هذا القرن والقرن الذي يليه اكتمال نشاطهم الموسوعي لبلورة أساس تراثهم الثقافي ممثلا في تلمود بابل ذي العشرين جزءا والذي يعتبر مع تلمود القدس الذي يصغره حجما دائرة معارف الثقافة العبرية التقليدية¹³ ان سلوك يزدجرد الثاني الديني يبدو في نظرنا صادرا عن نظرة سياسية لا عن ردة فعل نفسية او دينية كما يذهب الى ذلك بعض من أخذوا بفكرة أن العامل النفسي هو الحكم في سياسة الشرقيين (وأين تقف حدود الشرق؟) وأن العامل العقلي (والى أي حد يمكن فصل العقلي عن النفسي؟) هو الحكم في سياسة المتعنين الى الحضارة اليونانية الرومانية.

إن هذه الفترة التي رأينا بعض ملامح الصراع الديني فيها كانت تحمل في طياتها أكبر خطر هدد الدولة الساسانية في هذا القرن تماما كما هددت المانوية الدولة في القرن الثالث وهو الخطر المزدكي الذي سيتجلى في عهد خلفائه وسيعمد حتى الثلث الاول من القرن السادس. واذا كان يزدجرد قد حدد من النزيف أثناء فترة حكمه فان خلفاءه هرمرز الثالث (457-459) وفيروز الاول (459-484) وولاش (484-488) سيفرقون في أزمة انتهت بكارثة حقيقية على البلاد فأصبحت تابعة للترك مستسلمة للبيزنطيين على ضعفهم فاقدة لكل سيطرة على العرب البدو في بلاد الرافدين والخليج بل ستسقط محييتهم

Chouraqui (André) - Histoire du Judaïsme - Paris, Puf., 1968 p. 41. - 13

الحيرة في أيدي الكنديين الحضرميين، هؤلاء العرب الجنوبيين الذين لا يمثلون غير جزء صغير من الجماعات البشرية الهائلة التي دفعها انهيار الوضع الاقتصادي جنوب الجزيرة الذي اختزلته الروايات القديمة في تصدّع بعض الاجزاء من سدّ مأرب والضغط الحبشي معا الى البحث عن مجال حيوي في مناطق الخصب الشمالية تماما كما يدفع اليوم ظهور النفط في الخليج والسعودية الى هجرة اليمنيين نحو هذه البلاد.

ان وضعنا كهذا يتطلّب رجال حكم على مستوى عال من الكفاءة للحدّ على الاقل من انهيار الدولة ولم يكن خلفاء يزدجرد كذلك : فما أن مات الشاهنشاه حتى اندلعت الحرب بين ابنيه هرمز الثالث وفيروز وانقسم المجتمع الايراني بين مؤيد لهذا ومؤيد لذاك ومالت الكنيسة المجوسية ذاتها الى فيروز في حين اضطلعت أمهما بالحكم في المدائن طيلة هذه الحرب الأهلية التي انتهت بأسر فيروز أخاه ثم قتله والانفراد بالحكم. ولقد تعاقبت على الامبراطورية الساسانية أثناء فترة حكم فيروز الخطوب :

- حدود شمالية وشرقية مهدّدة بالغزو التركي.

- جفاف طويل نتجت عنه مجاعات مسّت مناطق شاسعة في الامبراطورية.

- تكاثر حالات التنصر في الطبقات العليا من المجتمع.

ان الصورة التي كانت عليها القوتان العظيمتان في الثلث الاخير من القرن الخامس هي صورة انهيار شامل ولم تكن قد توقّرت هذه المرة أيضا الظروف الملائمة لظهور دولة جديدة تحلّ محلّ دول العالم القديم المنهار. فكان لابدّ من انتظار قرن كامل ونصف القرن حتى يحدث ذلك مع الدولة العربية الاسلامية.

الفصل الخامس

الهرطقات الرسمية

حاول الأمبراطور زينون (474-491) وهو يتسلم الحكم أن يسلك سياسة واقعية توثق العلاقة بين الدولة البيزنطية ومقاطعاتها في الشرق الأدنى فاعتنق المونوفيزية مثيرا بين بيزنطة وروما انشقاقا دام حتى عهد جوستينيان وامتحن التساطرة فهاجروا إلى البلاد الساسانية يحملون معهم كتب أرسطو وجالينوس Gallien وديسكوريدس ويترجمونها إلى السريانية والكلدانية ناشرين بذلك الثقافة الاغريقية في بلاد الرافدين الساسانية. أما على المستوى السياسي، فقد عقد صلحا "أبديا" مع الوندال في قرطاج رغم ما كان يعرف من شدة اضطهادهم للكنيسة الكاثوليكية على عهد هونيريك Huneric (477-484) خاصة وما بدأ يظهر عليهم من ضعف استغلته قبائل البربر من لواتة في ليبيا والفراشيش Frexès في الوسط التونسي وقبائل جبال الأوراس النوميديّة، إذ لم تكن بيزنطة في وضع يمكنها في هذه الفترة من كبح التمرد البربري الخطير. إن هذه القبائل وغيرها من القبائل البربرية لم تكن، شأنها في ذلك شأن القبائل القحطانية والعدنانية في الجزيرة العربية لترضح للسلطة المركزية إلا عندما تكون هذه السلطة على قدر كاف من القوة وهي تستغل فرصة كل ضعف يبدو على الدولة للانتفاض عليها. كتب شار ديل عن هذه القبائل:

فإلى جانب سكان المقاطعات الذين يظهرون عداوتهم للوندال أو يكتمونها، لم يكن موقف القبائل البربرية أقل إزعاجا. ذلك أنه إذا كان جنزريك Genséric (428-477) الصلب قد فرض سلطته عليها وأشركتها في غزواته الحربية فإنها سرعان ما تخلصت من سيطرة خلفائه. ومنذ حكم هونيريك Hunéric (477-484) أعلن جبال الأوراس استقلالهم من دون أن يتمكن الوندال من الفت في ساعدتهم. وقد سلك بعد ذلك مسلكهم أهالي الحظنة والضبيان وكبار رؤساء القبائل في مختلف أجزاء موريطانيا. فلم يعد يربطهم بالوندال في أحسن الحالات غير

رابطة التبعية. ثم إنهم خططوا خطوة أخرى يشجعهم على ذلك عجز الوندال عن عقابهم فإذا القبائل الموريطانية تنزل إلى الأراضي المنبسطة متخطية الحصون الرومانية المهجورة التي كانت تمثل حاجزا لها وتعيش في هضاب نوميديا العليا ولا يتمكن هونيريك من الحيلولة دون غزواتها الضارية.

أما قبائل طرابلس في عهد ترانساموند Transamond (496-522) وقبائل تونس الوسطى في عهد هيلديريك Hilderik (523-530) فقد ألحقت بالقوات الملكية بعد أن تمردت هي بدورها هزيمتين متتاليتين.

وإذن فإنه ليس بإمكان جيليمير Gélimer (530-534) أن يعول في دفع البيزنطيين على هذه هذه القبائل. لقد كان الموريطانيون يرقبون الأحداث في حياذ لا يبعث على الاطمئنان، متهيين للانضمام من دون تردد (أو وحز ضمير) إلى الفريق الغالب¹

إن كلام دييل يتعلق بالبربر ولكن يكفي أن نضع مكان لواتة والفراشيش قبائل كندة الحضرمية أو حمير اليمنية أو قريش الحجازية لنحصل على صورة واضحة عما كانت عليه أوضاع المستعمرات البيزنطية والساسانية في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس. فشعور زينون بإمكانية انهيار الدولة البيزنطية انهيارا تاما هو الذي يفسر عقد صلح مع الوندال منكري الهوية المسيح والمحتفظين في قرطاج بـ "الحلي" الامبراطورية، رمز السلطة العليا، التي استولوا عليها عندما نهب جنزيريك روما². كما يفسر اعتناقه المونوفيزية "مذهب المصريين والشوام" بكل ما يعني ذلك من خروج عن قرارات مجامع مسكونية (عالمية) أشرف الأباطرة البيزنطيون أنفسهم على انعقادها : فقد كان الامبراطور يحتاج إلى قدر معقول من الاستقرار في الشرق الأدنى وفي البحر الأبيض المتوسط عامة بعد أن أصبح الاستقرار أثرا بعد عين. ويكفي أن نشير إلى بعض الأحداث المتعلقة بالعرب في هذه الفترة والفترة التي تليها توضيحا لما نقول. فحرب البسوس المشهورة في كتب الادب حدثت سنة 490 أما أكبر غزوتين عربيتين على مناطق النفوذ البيزنطي في الشام فقد حدثت أولاهما سنة 502. أما الثانية التي بلغت في امتدادها القدس وأجبرت جوستنيان على الأمر بتحصين الاديرة فقد حدثت سنة 529.

1- Charles Diehl, L'Afrique Byzantine, ص 12.

2- المرجع السابق ص 5.

كما أن اختلال الأوضاع جنوب الجزيرة دفع كنده الحضرية إلى الهجرة نحو الشمال فحلت محل ملوك الحيرة في بلاد الرافدين وشمال الجزيرة ودفعت الغسانيين وهم فرغ من الأزدي إلى الاستقرار على الحدود البيزنطية جنوب الشام سنة 490 تقريباً فسيطروا على القبائل اليمنية التي سبقتهم إلى الاستقرار في المنطقة وعقدوا مع البيزنطيين سنة 502 - 503 اتفاقاً كتب عنه ابن خلدون الذي أكثرنا من الاستشهاد به لمضمون الشواهد لا بسبب ما يتصل بالتاريخ للأحداث إذ لا يجب الاعتداد بما ورد عنده في هذه المسألة مما يتصل بالفترة موضوع الدراسة.

تفردوا بملك الشام وذلك عند فساد كان بين الروم وفارس فخاف ملك الروم أن يعينوا عليه فارساً. فكتب إليهم واستدناهم (...) وكتبوا بينهم الكتاب على أنه إن دهمهم أمر من العرب أمدهم بأربعين ألفاً من الروم وإن دهمه أمر أمده غسان بعشرين ألفاً وثبت ملكهم على ذلك وتوارثوه³.

ويبدو أن مثل هذه الغزوات هي التي دفعت زينون إلى تعضيد حكم الغساسنة جنوب الشام بحكم موال في مكة بعد أن عجزت خزاعة عن السيطرة على الأوضاع فدعم قصي أحد رؤوس القرشيين في فرض زعامته على مكة. وكل آراء المؤرخين تجمع على أن قریشا تحولت في هذه الفترة المضطربة بالذات وفي ظل الظروف التي وصفنا من البداوة إلى الاستقرار بمكة. كتب ابن خلدون عن هذه الحادثة :

فلما كان العام الذي أجمع في قصي الأفراد بولاية البيت وحضر انعوته من عذره (القحطانية المسيحية الموالية للبيزنطيين) تعرض لبني سعد أصحاب صوفة في قومهم من قریش وكنانة وقضاعة عند الكعبة. فلما وقفوا للإجازة قال : "لا نحن أولى بهذا منكم، فتناجزوا وغلبيهم قصي على ما كان بأيديهم وعرفت خزاعة وبني بكر عندئذ أنه سيمتنعهم من ولاية البيت كما منع الآخرين فالتحاروا عنه وأجمعوا لحربه، وتناجزوا وكثر القتل، ثم صالحوه على أن يحكموا من أشرف العرب، وتنافروا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن عامر بن ليث بن بكر بن عبدمناة ابن كنانة فقضى لقصي عليهم فولي قصي البيت وقر بمكة⁴.

3 - ابن خلدون ... العبر، م 3 ص 583.

4 - ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 692.

لقد كانت الأنشطة المتعلقة بالبيت موزعة على أكثر من مستفيد فانفرد قصتي بها جميعا⁵:

فكان (قصي) أول من أصاب من بني لوي بن غالب [بن فهر: قريش: العدناني] ملكا أطاع له به قومه، فصار له لواء الحرب وحجابه البيت وتيمنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم اليه في قليل أمورهم وكثيرها، فاتخذوا دار الندوة ازاء الكعبة في مشاوراتهم، وجعل بابها إلى المسجد فكانت يجتمع الملا من قريش في مشاوراتهم ومعاقدهم، ثم تصدّى لأطعام الحجيج وسقايتهم لما رأى أنهم ضيوف الله وزوار بيته، وفرض على قريش خراجا يودونه إليه زيادة على ذلك كانوا يردفونه به فحاز شرفهم كله وكانت الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء له⁶.

واذن فاذا كان يمكن الحديث عن ملك عربي جنوبي منذ الالف الاولى على الأقل قبل المسيح وعن الدول المعنية ثم السبئية ثم الحميرية فانه لا يمن الحديث عن بذور حكم عربي شمالي الا نهاية القرن الخامس وبداية السادس الميلاديين أي بالضبط عند اندثار حكم العرب الجنوبيين وستحاول كندة الحضرمية أن تتجاهل هذا المسار التاريخي فيقتل ملوكها جميعا.

لقد استطاع زينون بهذه السياسة أن يحد من تفتت الدولة وقد تابع خليفته أنستاس (941 - 518) سياسته الدينية فتوثقت العلاقات أكثر مما كانت عليه في السابق بين الدولة البيزنطية ومواطنيها المونوفيزيين. ولا يبدو، في نظرنا، أن ما يذكره كثير من المؤرخين الغربيين عن امتحان خليفتي أنستاس الامبراطورين الألبانيي الأصل جوستين الأول (518 - 527) وجوستينيان (518 - 565) الذي شارك قريبه في الحكم أولا ثم خلفه فيه بداية من 527 المونوفيزيين كان سياسة قارة وواضحة وعامة ذلك أنه اذا كانت المراجع تشدد على إيمان جوستينيان وتقواه وامتحانه الاربوسية بعد انتهاء حكم الوندال في شمال افريقيا سنة 534 فما ذلك، سياسيا، الا لان الاربوسية كانت مذهب دولة تم القضاء عليها. أما فيما يخص امتحان المونوفيزيين، نواة الدولة في الشرق الأدنى،

5- الحجابة : أن تكون مفاتيح البيت عنده فلا يدخله أحد إلا بإذنه. / السقاية : سقاية زمزم. / الرفادة: طعام لأهل المواسم / الندوة: الاجتماع للعشيرة والرأي في "دار الندوة" / اللواء: يعني في الحرب لأنه كان لا يحمله عندهم إلا قوم مخصوصون

6- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 693.

فالقضية تحتاج الى تساؤل : فهذا حليفه الغساني المونوفيزي جنوب الشام الحارث بن جبلة (527 - 569) يستقبل بطيريك انطاكية الذي دعاه الى التراجع عن المونوفيزية فيرفض دعوته بشكل عميق الدلالة حرص أحد الكتاب المتعصبين على كل ما يعد هرطقة على وصفه :

"روى ميخائيل السوري أن أفرام بطيريك أنطاكية زار الملك الغساني المونوفيزي الحارث بن جبلة سنة 538 بغية اقناعه بالأخذ بما تقرّر في مجمع خلقدونية. وقد قدّم الحارث إحراجا للبطيريك طعاما يتكون من لحم الجمل فحسب فرفض أفرام أن يأكل منه. فما كان من الحارث إلا أن قال له :
"كيف تؤدّ اجباري على القبول بمذهبك إذا كنت تعتقد أن الأكل من "لحمي يدنسك"7".

بل ان هذه الفترة ستشهد ولادة اليعقوبية (نسبة الى يعقوب البرادعي Baradée، الوجه الشامي من المونوفيزية).

ان الذهاب مذهب من يقول بامتحان المونوفيزية لا يسمح بفهم العلاقات البيزنطية الحميرية اليمنية مثالا في هذه الفترة ولا كيف زوّد جوستين وجوستينان النجاشي الحبشي المونوفيزي كَلْبُ Kalab بالسعدة التي مكّنته من احتلال اليمن سنة 525.

ان العوامل الاقتصادية والسياسية ضرورية لفهم ما يبدو أنه سياسة دينية فحسب. ومثال اليمن الحميري يعد أفضل الأمثلة على ذلك: فهذا البلد يقع في طريق تجارية حساسة بالنسبة الى الامبراطورية البيزنطية وكان يعيش في النصف الثاني من القرن الخامس أزمة اقتصادية خانقة وتقلصا في هيمنة الحميريين في اليمن على بحران وعدن وحضرموت وضفار التي كان لها ملوكها المتهيشون دائما للتمرد والاستقلال سببا هجرة الكنديين الحضرميين أصهار الحميريين الى الهجرة نحو الشمال الخصب. وسقوط الحكم الحميري نهائيا في الثلث الأول من القرن السادس اذ ما ان مات شرحبيل يعفر ابن أبي كرب أسعد سنة 455 حتى تالت الانتفاضات وانتهى الامر بأن "ملك الخيتعة ولم يكن من أهل بتن

المملكة. قال ابن اسحق : ولما ملك لختيعة غلب عليهم وقتل خيارهم وعبث
برجالات بيوت المملكة منهم. قيل أنه كان ينكح ولدان حمير، ويريد بذلك أن
لا يملكوا عليهم، وكانوا لا يملكون عليهم من نكح (...) ثم وثب عليه ذو
نواس زرعه تبّع بن تَبّان أسعد أبي كرب (...) وكان صبيّا حين قتل حسان.
ثم شبّ غلاماً جميلاً ذا هيئة وفضل ووضاءة ففتك بلختيعة في خلوة أرادها فيها
على مثل فعلاته القبيحة، وعلمت به حمير وقبائل اليمن فملكوه واجتمعوا عليه
وجدد ملك التبابعة وتسمّى يوسف وتعصّب لدين اليهوديّة⁸.

عندما نحذف الجانب الروائي الذي لا نعتقد أنه قريب من الاسطورة، يصبح ما
كتب ابن خلدون واضحاً:

فاليمن كان يحكمه الحميريون من صنعاء بينما كانت تهامة وعدن وحضرموت
وضفار لا تقبل بهيمنة الحميريين وعندما ضعف هؤلاء افتك أحد المتمردين الحكم
منها لفترة ثم استعاد ذو نواس الحميري الأصل اليهودي الدين الحكم واجتهد في
مقاومة محصومة ومنهم متصرون مدعومون بالحبشة وبيزنطة فنكل ببعضهم وهم
بنو الحرث في بحرّان 518 على الصورة التي ذكرها القران في قصة "أصحاب
الأخدر" "قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود وهم على
ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد"⁹.

فمن الطبيعي أن يلتجئ المسيحيون الى مرجعهم الديني الحبشة وبيزنطة لدفع
هيمنة الحميريين المتهودين ومن الطبيعي كذلك أن يستغل جوستين وجوستينيان
هذا الوضع في غياب قوة الردع الساسانية فيسيطر على هذا الموقع الاستراتيجي
الهام. وهذا ما حصل بالفعل سنة 525 فان "السفن قدمت على النجاشي من
قيصر فحمل فيها الجيش ونزلوا ساحل اليمن واستجاش ذو نواس بأقيال حمير
فامتنعوا من صريحه وقالوا كل أحد يقاتل على ناحيته فألقى ذو نواس باليد ولم
يكن قتال"¹⁰. فلا مجال عندئذ للاخذ بما قيل عن امتحان جوستين وجستينيان

8- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 107.

9- قرآن (البروح، 3-7).

10- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 115.

المونوفيزيين بالشكل الذي تحدّثت عنه الكتب التمجيدية إذ كانت البيانات السماوية تتخذ في كل العصور مطيّة للسيطرة على الأرض. واذن فأنه يمكن القول ان سياسة زينون رغم ما أدخل عليها جوستين وجوستينيان من تشذيب قد آتت أكلها فلقد استقر الوضع نسبيا جنوب الشام ولم يُخيّب أحفاد قصي أمل البيزنطيين فيهم فالتزموا الحياد وانهمكوا في التجارة فكانوا أكبر المستفيدين من اندثار الهيمنة الحميرية:

ثم ان المطلب هلك بردمان من اليمن، فقام بأمر بني هاشم بعده عبد المطلب بن هاشم وأقام الرفادة والسقاية للحاج على أحسن ما كانوا يقيمونه بمكة من قبله، وكانت له وفادة على ملوك حمير (حتى سنة 525) والحبشة (بعد هذا التاريخ)¹¹.

هذه السياسة بعيدة النظر لم تتوفّر للدولة الساسانية طيلة هذه الفترة وحتى عصر كسرى أنو شروان (531 - 579) رغم أن الوضع الذي وصفنا في الفصل السابق (الخطر الهبطلي في الشرق والمجاعة التي سببها جفاف دام سنوات وكثرة حالات التنصر في الطبقات العليا من المجتمع) كان يحتاج الى سياسة بعيدة النظر تحدّ من الانهيار الاجتماعي والسياسي فظهرت نتيجة هذه الوجوه العديدة لأزمة المجتمع الساساني الدعوة المزدكية الوثيقة العلاقة بمناوية النبي ماني في القرن الثالث الميلادي رغم بعض الاختلافات الثانوية ذلك أن المزدكية كانت تختلف عن المانوية في اعتبار "ان الظلمات لا تتصرّف، على عكس النور، عن طواعية وعن قصد انما عشوائيا وصدفة وبذلك لا يكون الامتزاج بين النور والظلمات الذي ولد منه العالم المادي كما جاء في دعوة ماني، نتيجة تدبير وانما نتيجة صدفة عمياء. واذن فغلبة النور تبدو أكثر ظهورا في المزدكية مما هي في المانوية وهذا يعني أن الله الخيّر (النور) قد هزم الاله الشرير (الظلمات) ولذلك فلا بد من عبادة الله القاهر. غير أن هذا النصر الالهي لم يكتمل اذ مازال العالم المادي الذي هو خليط من العنصرين الأساسيين موجودا

11- المرجع السابق، ص 696.

ولذلك فإن غاية تطوّر هذا العالم تتمثل في تحرير ذرات النور مما يخالطها من الظلمات¹².

فالمزدكية رغم الفروق البسيطة بينها وبين المانوية تناقض الزرادشتية إذ تقترح على الإنسان أن يتحرّر من الظلمات (الجسد، المال، الأرض أي المال والبنون) بالأعراض عنها جميعا وبما أن الملكية فقدت إلى هذا الحدّ شرعيّتها (كظلمات مآلها الهزيمة) فقد دعت المزدكية إلى الغائها. غير أن المزدكية وهي تدعو عامة الناس إلى شيوعية تنهي الصراع بينهم حول الأرض والثروة والنساء فرضت على المزدكيين الخلّص أن يكونوا في منزلة خاصة يبلغها المرء عندما يعرض عن الزواج وأكل لحم الحيوان...

إن مثل هذه الدعوة لا يمكن أن لا تجذب إليها الفئات الضعيفة في المجتمع الساساني. وعلى العكس من هذه الفئات رأى فيها رجال الدين وقطاع كبير من الطبقة الاقطاعية أعظم خطر يهدّد الدولة والدين السني. وقد ازداد احساسهم بالخطر عندما أسر البرابرة الهيطل فيروز أثير رجال الدين ولم يطلقوا سراحه الا مقابل فدية اضطر لتوفيرها إلى تقديم ابنه قواذ رهينة للهيطل مدة سنتين وعندما عاد فيروز إلى محاربتهم مني بهزيمة ثقيلة إذ انهزم الجيش الساساني (484) وقتل هرمز وسقطت ابنته أسيرة في أيدي الهيطل فضمها ملكهم إلى حريمه واجتاح مقاطعات عديدة من إيران منها هراة وفرض على الإيرانيين اتاوة سنوية ثقيلة ستثقل كاهلهم عقودا طويلة¹³.

لقد حاول رجال الدين والاقطاع أن يضعوا حداً لتفتّت الدولة فاحتاروا يلاوش (484 - 488) أخا فيروز خليفة للشاة القليل ولكن ذهب جهدهم عبثا. وعندما تحلفه قواذ أبو كسرى أنو شروان (488 - 531) أصيبوا بفزع حقيقي إذ اعتنق الشاه الجديد نفسه... المزدكية¹⁴.

12- ص 336 ... L'Iran - Christensen.

13- المرجع السابق، ص 289.

14- يبدو أن هناك صلة بين معاني لفظ "قواذ" في العربية ومزدكية "قواذ".

ان الآراء تختلف في تحديد أسباب اعتناق قوآذ المزدكية هل هي أسباب عقدية أم سياسية. ولن تحل هذه المسألة في نظرنا تماما كما لن تحل مسألة اعتناق قسطنطين المسيحية. على أن ما لا بد من الإشارة إليه هو أن انتصار المسيحية واتخاذها دينا للدولة مرده الى تغلغل هذا الدين في مجتمع الامبراطورية على امتداد ثلاثة قرون وليس ذلك شأن المزدكية التي لم تتجذر في المجتمع الساساني ولذلك ما لبث رجال الدين وكبار الدولة أن دبروا انقلابا في البلاط الساساني فعزلوا قوآذ (496) ونصبوا أخاه جاماسات (496 - 498) مكانه على العرش الساساني فهرب قوآذ من سجنه الى الهيطل خصوم الساسانيين يطلب عونهم على اعدائه وقد مكنوه من مبتغاه وفرضوا عليه ثمنا لذلك اتأوه جعلت من الدولة الساسانية دولة تكاد تكون تابعة للهيطل.

كتب ابن خلدون متحدثا عن استنجد قوآذ بالهيطل :

وفر قوآذ من محبسه ولحق بالهياطلة وهم الصغد مستجيثا لهم رمى في طريقه بأبو شهر فتزوج بنت ملكها وولدت له أنوشروان. ثم أمده ملك الهياطلة فرحف الى المدائن لست سنين من مغيبة وغلب أخاه جاماسات واستولى على الملك¹⁵.

هذا الاختلال الخطير في وضع الدولة الساسانية طيلة الفترة التي عقت وفاة يزيد جرد الثاني وخاصة أثناء حكم قوآذ سينجر عنه ما يشبه الفراغ في المناطق التي تشرف عليها امارة الحيرة وليس من الصدفة أن اندلعت في هذه الفترة حرب البسوس الذي قيل انها دامت أربعين سنة أي بالضبط من فترة الاضطراب الحاصل زمن قوآذ الى فترة تولي كسرى أنوشروان الحكم وتمكنه من إعادة هبة الدولة الساسانية سواء داخل الامبراطورية الساسانية أو في المناطق الخاضعة لامراء الحيرة:

واشتعلت نيران الحرب بين بكر وتغلب حوالي أوائل سنة 490 وذلك أن البسوس، وهي نخالة حساس بن مرة الشيباني كان لها ناقة يقال لها سراب فرماها كليب رائل في حماء، وقد كسرت بيض حمام كان قد اجاره فرمى ضرعها بسهم، فوثب

15- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 356-357.

جساس على كليب فقتله، فهاجت حرب بكر وتغلب بني رائل بسببها أربعين سنة، حتى ضربت العرب بتشاؤمها المثل¹⁶.

هذه الحرب وما شابهها وقعت في ظروف لا بدّ من تنزيلها فيها حتى تتضح أسبابها الحقيقية لا الأسباب القرية المباشرة وهذا الفهم العميق للاحداث هو الحري وحده بثيرة العرب لذلك العهد من تهمة تهوّر تفسر بمقتضاه حرب دامت أربعين سنة سبب كالذي سبق ذكره "أي ناقة كسرت بيض حمام".

ان فترة حكم قوآذ تعتبر طويلة ولكن السنوات الاربعين التي قضاها في الحكم يكاد لا يخلو عقد منها من هزة اجتماعية او عقدية او عسكرية فكأن الدولة الساسانية أصبحت محكومة، رغم حكم أنوشروان الذي ستستعيد فيه الدولة بعض حيويتها، بمنطق التفتت فالانهيار فقوآذ نفسه لم يستعد حكمه الا بعون خارجي. واذا كان الهيطل قد مكنوه من الحكم فهم قد ربطوه بهم سياسيا وقد تزوج من ابنة الخاقان التي انجبها من أسيرته الساسانية ابنة فيروز ولكن هذه المصاهرة لم تمنع من الابقاء على الضريبة الثقيلة التي فرضوها عليه فاتجه حفاظا على الاتفاقية الهيطلية - الساسانية الى الدولة البيزنطية يطلب عونها المالي وقد قلّت مداخيله نتيجة تخفيف الضرائب على رعاياه تطبقا للمزدكية ولكن الدولة البيزنطية لم يكن من صالحها أن تتوثق العلاقة بين الساسانيين والهيطل أكثر مما أصبحت عليه فرفض أنستاز (491 - 518) مدّه بقرض يخفف من عجزه المالي واندلعت الحرب بين الامبراطوريتين بداية من سنة 502 بشكل متقطع لم يحرز فيه واحد من الطرفين نصرا حاسما رغم أن الهيطل وحيشا من اللخميين بقيادة النعمان بن الأسود (النعمان الثاني قتل 502) قد شاركوا في هذه المعارك انتصارا للساسانيين. وقد اضطر قوآذ حالما أحرز بعض الانتصارات الى عقد هدنة مع البيزنطيين سنة 505 للحدّ من نزيف الخزينة.

كان هذا هو وضع قوآذ عندما انضاف الى الضغط البيزنطي في الغرب والهيطلي (الانتصار الاعداء) في الشرق خطر ان حديدان : قبائل الهيطل البيض

16- كحالة (عمر رضا)... معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، ج 1، 1968 - ص 95.

في الشمال وقبائل كندة الزاحفة من الجنوب اذ قد حدث في هذه الفترة فراغ في عرش الحيرة لمدة قصيرة ملك بعدها المنذر الثالث (503 - 518) مرة أولى نحاض فيها حروبا دائمة ضد العرب الجنوبيين الذين تمكن ملكهم الكندي الحارث سنة 518 من افتكاك عرش الحيرة (518-527) ثم ملك مرة ثانية (528-554) بعد قتل الملك الكندي واستعادة عرشه الضائع:

ان حالة الضعف التي آلت بالامبراطورية الايرانية عقب الاضطرابات الشيوعية اذ كانت لم تحل بين قواذ ومواصلة حربه ضد البيزنطيين قد سمحت للحارث بن عمرو من قبيلة كندة بطرد المنذر الثالث من عرش الحيرة والاستيلاء على السلطة الملكية¹⁷.

وقد عمد الحارث الكندي الذي سيجعل الحيرة حتى هزيمته سنة 528 على يدي خصمه الملك المخلوع المنذر الثالث الى توزيع الحكم في المنطقة التاسعة التي اشرفت عليها كندة على أبنائه الاربعة. فعين شرحبيل على ضبة والرباب وئيم وبكر وسلمة على تغلب والنمر وبهراء ومعد يكرب على قيس وكنانة وحجر والد الشاعر امريء القيس على بني أسد.

غير أن سرعة انتشار السيطرة الكندية لم تكن تعني قدرة الكنديين على المحافظة على هذا الملك الواسع فقد انقض أمير الحيرة القديم على الحارث مؤسس الامارة الكندية بجيش مكوّن من "تغلب وبهراء واياذ من سكان العراق وتمكن من قتله سنة 528 أو سنة 529 وبذلك عاد المنذر الى حكم الحيرة في الوقت الذي آل فيه أمر فارس الى كسرى أنو شروان خلفا لوالده قباد¹⁸ ولن يكون مصير أبنائه بأفضل من مصيره "فأما شرحبيل وسلمة فقد ثارت الحرب بينهما ومع كل منهما أنصاره وانجلى المعركة عن قتل شرحبيل قتله عصم بن النعمان التغلبي وكان مع سلمي ثم عادت تغلب فأخرجت سلمي عنها فلجأ إلى بكر محتميا بها وأبت بكر أن تسلمه لاعدائه من تغلب أو المنذر أمير الحيرة¹⁹

17- ص 354 - L'Iran... - Chistensin.

18- النجار ... علاقة... - ص 38.

19- المرجع السابق، ص 39.

و"أما حجر بن الحارث (أبو امرئ القيس الشاعر) فلم يزل أميراً على بني أسد إلى أن بعث رسله في بعض الأيام لطلب الاتاوة من بني أسد فمنعوها وضربوا الرسل. وكان حجر بتهامة فبلغه الخبر فسار إليهم في ربيعة وقيس وكنانة فاستباحهم وقتل أشrafهم وسرقاتهم، وحبس عبيد بن الأبرص في جمع منهم، فاستعطفه بشعر بعث به إليه فسرّحه وأصحابه وأوفدهم فلما بلغوا إليه هجموا عليه فقتلوه وتولّى قتله علباء بن الحرث الكاهلي، كان حجر قتل أباه. وبلغ الخبر امرئ القيس فحلف أن لا يقرب لذّة حتى يدرك بثأره من بني أسد²⁰. وعبثاً حاول هذا الأمير الكندي الاستنجاد بجوسنيين لاستعادة ملك أبيه فاضطر إلى الانتقال من مكان إلى مكان هرباً محاصّة من مطاردة أمير الحيرة. وقد عبّر عن وضعه ذاك قائلاً:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا

وقد نضيف استطراداً أن بعض من ذكرنا من الشعراء سيتخذون قدوة في الشعر ومثلاً أعلى سعى النقاد المحافظون إلى الإقناع بضرورة الحذر حذوه والحال أن القوم لا يمثلون على مستوى القيم أو اللغة إلا ما يمكن أن تمثله فترة كالتّي وصفنا بكل ما تعنيه من نسبة يفرضها كل قراءة تاريخيّة لحياة الأمم. فمن الواضح إذن أن الانكسار الساساني (استيلاء الاحباش على اليمن سنة 525، الحرب الساسانية البيزنطية 527، التمرد المزدكي 528...) كان قد بلغ في الثلث الأول من القرن السادس حدّ الخطر وستقلب ولاية كسرى أنوشروان وعودة المنذر إلى إمارة الحيرة الموازين بين الدولتين العظيمين الإيرانية والبيزنطية رغم أن هؤلاء قد ظفروا بدورهم بأمير غساني تابع من الطراز الأول هو الحارث بن جبلة (529-569) وبظفرهم هذا سوف يصل الصراع العربي - العربي بين الحميتين أقصى ما وصله من قبل حكمهما ومن بعد.

20- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 573.

الفصل السادس

عصر جوستينيان وكسرى أنو شروان وعبد المطلب بن هاشم

يميل المؤرخين إلى نسبة القرن السادس إلى جوستينيان الذي كان منذ 518 يشارك جوستين (518-527) فعليا في الحكم قبل ان يخلفه سنة 527 فيمتدّ حكمه إلى سنة 565. ويمكن أن نعمّم هذه النسبة فتشمل شاه الساسانيين كسرى أنو شروان (أي الروح الخالدة) إذ امتدّ حكمه طيلة نصف قرن (531-579).

في هذه الفترة ظهر أشهر امراء العرب الموالين للقوتين العظميين: المنذر (503-518 ثم 528-554) وابنه عمرو بن هند (554-569) في الحيرة والحارث بن جبلة (527-569) في بصرى. أما في مكة فيعتبر عبد المطلب (ت 579) معاصرا لمن ذكرنا من الملوك والأمراء.

تبدو شخصية جوستينيان ونظراته السياسية محلّ خلاف عند المؤرخين إذ فيهم من يمتدح اجتهاد الامبراطور في استعادة ما ضاع من الامبراطورية في الغرب والشمال الافريقي وفيهم من يرى أن هذا الجهد ذاته لا يعدو ان يكون تعبيرا عن روح ماضوية زادت من ضعف الجزء الشرقي من الامبراطورية من دون أن تحقق نتيجة باقية في جزئها الغربي.

وفعلا فقد تعددت على عهده الحملات ضد المتبررين من الاستروغوط في ايطاليا والوندال في افريقيا الشمالية وقد يكون من أسباب تشجيع جوستينيان على مشروعه هذا ما شهده من ضعف وندالي مكّن القبائل البربرية من الانتصار على هيلديريك (523-530) وأحدث نزاعا داخل الحكام الوندالي انتهى بافتكاك جيليمير الحكم (530-533) وكذلك ما شهده من هذا التناحر البربري-البربري الشبيه إلى حدّ كبير بالتناحر العربي في الشرق الأدنى.

كتب عبد الله العروي متحدثا عن مملكتي يبداس Yabdes في الأوراس
وأنتالاس Antalas في الوسط والشمال الغربي التونسيين:

كانت مملكة أنتالاس التي حدّد موقعها في الشمال الغربي التونسي قد قاومت
كذلك الوندال وكانت الهزيمة التي لحقتها بهم سنة 530 بمثابة الاعلان عن نهاية
حكمهم في الشمال الأفريقي ذلك أن هذه الهزيمة هي التي استثارت شجاعة
الكاثوليك وامبراطور بيزنطة. إن أنتالاس سيّعين البيزنطيين وقد اعترفوا بصفته
الملكية في حربهم ضد يابداس ولكنه سيثور عليهم هو بدوره عندما سيعاملونه
بفظاظة بعد أن أحسوا بإمكانية الاستغناء عنه فيلحق بهم هزيمة سنة 545 ليهزمه
في السنة التي تلتها القائد البيزنطي تروغليطا¹

لقد استغلّ جوستينيان وضع الوندال والبربر فبعث بقائده الشهير بليساروس
Belisaire (ت 565) إلى قرطاج يزيل دولة الوندال (533) أولا ويمهد لمن
خلفوه من القادة الطريق لكبح النزعات الاستقلالية البربرية.

ولكن هذا الانتصار البيزنطي في منطقة بعيدة كالشمال الأفريقي عن بيزنطة ثم
في إيطاليا ليس في نهاية الأمر انتصارا حقيقيا ودائما إذا استحضرنّا ما كانت
تشهده بلاد البلقان ذاتها من زحف السلافيين من بلغار وسرب وكروات
وسلوفاينيين وبسنين على كامل المنطقة بل تهديدهم بيزنطة مركز الامبراطورية
فقد

اجتاز السلافيون على عهدي جوستين الأول وجوستينيان الدانوب في غزوات
مدمرة بلغت البحر الادرياتي وخليج كورنثة وساحل بحر ايجه وكانوا يهاجمون
المدن ثم ينسحبون شمال النهر²

بل أن بيزنطة ذاتها تعرضت لصعوبات اجتماعية داخلية أسفرت عن انتفاضة
دموية سنة 532 سيطر فيها المتمردون على العاصمة طيلة ثلاثة أيام وأسلموها
للجرق والنهب فلم تسلم حتى أيا صوفيا من النهب ولم يتمكن القائد
بليساريوس من إخمادها إلا بعد سقوط ما لا يقلّ عن ثلاثين ألف قتيل³.
وتقارب تاريخي الأزمة البيزنطية الداخلية (532) واستعادة بيزنطة هيمنتها على

1 - Abdellah Laroui: L'Histoire du Maghreb, tome 1, 1976, p. 69.

2 - Georges Castellan: Histoire de Balkans, 1992, p. 35.

3 - P. Lemerle: Histoire de Byzance, p.55

الشمال الأفريقي (533) هو الذي دعا بعض المؤرخين إلى أن يروا في سياسة جوستنيان ما يشبه سياسة تحويل الأنظار عن الأزمات الداخلية بتوجيهها نحو هدف خارجي. وإذا فكل هذه الأحداث هي التي تفسّر كما قلنا اختلاف المؤرخين في تقييم عهد هذا الامبراطور .

إن ملكا ككسرى أنو شروان لا يمكن إلا أن يفكر في استغلال انشغال الامبراطور البيزنطي بالحرب في الغرب وبالصعوبات الاجتماعية الداخلية، إذ ليس من باب التهور والسياسة غير المخططة أن أعلن الشاه الحرب على البيزنطيين رغم صلح سنة 532 والحق بهم هزائم فادحة. فقد اجتاح سوريا سنة 540 وفرض أتاوة على جوستنيان ولكن هذه الحرب والحروب اللاحقة لن تكون حاسمة إذ كانت الدولتان وهما تتحاربان تتعرضان إلى ضغط عسكري كان يهددهما معا.

فكسرى نفسه كان مضطرا إلى حلّ قضايا ثلاث ورثها عن أبيه. كان عليه أن يتخلص من خطر الهيطل في الشرق الذين كانوا ما زالوا يخضعون الساسانيين لشروط الاتفاقية التي قيّدوا بها قواذ ومن ضمنها ضرورة دفع أتاوة ثقيلة. وكان عليه أن يحل قضية الهون في الشمال وكان عليه أن يجدد صيغ التعامل مع الإمارة العربية في الحيرة. ولا يمكن إيجاد حلول لمثل هذه القضايا الخارجية إلا بتجديد قوة الدولة وإعادة الوحدة الوطنية التي تفتت أثناء الحركة المزدكية واستيلاء الضعفاء على أملاك النبلاء وعلى النساء واحتداد الصراعات الدينية في المملكة. وفعلا فقد بدأ كسرى أنو شروان باصلاحات داخلية أجمل المؤرخون العرب القول فيها فأطلقوا عليها عبارة "عدل كسرى" وهي تتمثل في إعادة الممتلكات إلى اصحابها القدامى وفي صياغة حلول لقضايا النساء المختطفات والسعي إلى فرض نظام جبائي يراعي حجم الملكية ويعمم الضريبة الشخصية على كل الايرانيين ما بين 20 و 50 سنة باستثناء "النبلاء والأعيان والجنود ورجال الدين والكتبة ومن هم في خدمة الملك"⁴. وراعى في هذه

الضريبة كما راعى في الضريبة العقارية حالة دافعي الضريبة المالية وسهر على أن تطبق تعليماته بشكل صارم بمنع تجاوزات القائمين على تطبيق القانون.

لقد حازت هذه الاجراءات على رضا الناس عموما ووفرت للخزينة مداخيل أكبر وعززت منزلة الدولة. وإذن فهي لم تكن كما صورها بعض المؤرخين تأثرا منهم بما رسخ منها في أذهان معاصريه من العرب الذين كانوا يعيشون خارج نطاق الدولة المنظمة العريقة في العمل بالدساتير نابعة من نوع من "الحكمة الفطرية" بقدر ما كانت صادرة عن عقل سياسي فهم أن الشيوعية المزدكية إنما نتجت عن احتناق اجتماعي حقيقي فعمل كسرى لا على انتهاج النهج السياسي القديم ولا على قلب الأوضاع وإنما على اقرار نوع من الإصلاح يعزز الدولة ويوحد النسيج الاجتماعي. يبدو هذا النفاذ السياسي واضحا حتى في الاجراءات القانونية التي أصبحت تعتمد التدرج في العقاب حفاظا على قوة عمل المجرمين:

فخلافا لما ساد في الازمنة السابقة أصبح تنفيذ الاحكام القضائية بئر الأعضاء يراعي ضرورة الحفاظ على قوة عمل المجرمين، ففي حالة الزنا مثلا يقع الاكتفاء بقطع الأنف. وإذا عاد المجرمون المحكوم عليهم بتعويض مالي وفوا بادائه إلى ارتكاب عمل مخالف يقع قطع آذانهم وأنوفهم ويحرمون من كل عفو جديد⁵.

ولعل أفضل ما يدل على تهافت صورة كسرى التقليدية "الاجراءات الأمنية الخاصة التي كانت تتخذ لحماية للملك من محاولات الاغتيال. فلا أحد يعرف المكان الذي ينام فيه الملك كل ليلة. ويحكى أن اربعين سريرا كان يقع تهيئتها في أماكن مختلفة لاردشير الأول وكسرى الأول (أنو شروان) وكسرى الثاني (أبرويز) وفي بعض الأحيان لا ينام الملك في أي واحد منها وإنما في غرفة من الغرف البسيطة وهو يتوسّد ذراعه⁶.

5- المرجع السابق، ص 373.

6- م.س. ص 374.

إن أهم الأسباب التي دفعت بالمؤرخين القدامى إلى رسم صورة مشرقة لكسرى أنو شروان هو تنزّل فترة حكمه بين فترة الفوضى المزدكية وفترة خلافة أعقابه المضطربة التي انتهت بذهاب الدولة الساسانية .

وحتى ما ينسب إلى عصره من ازدهار أدبي أو فلسفي يعتبر الطبيب برزويه الشهير في التأليف العربية القديمة أفضل تعبير عنه، ليس في نهاية الأمر غير نتاج لانتشار الحضارة الاغريقية الرومانية من ناحية والهندية من ناحية أخرى في البلاد الايرانية التي كانت قبلة المعارضين الدينيين والسياسيين للدولة البيزنطية فاعتبر علامة تسامح فكري أضاف إلى صورة كسرى مزيدا من الاشراف. ومن الأمثلة على ما يبدو تسامحا فكريا أنه عقب إغلاق مدرسة أثينا الفلسفية سنة 529 واضطهاد فلاسفتها لجأ سبعة من هؤلاء هم داماسيوس السوري Damascios وسيمبليسيوس وليد قيليقية Simplicius وأولامبوس الفريجي Eulamios وبريسيانوس الليدي Priscianos والفينيقيان هيرمياس و ديوجينيوس Hermias et Diogène وايزيدوروس غزّة Isodore فقابلهم كسرى أنو شروان بكل ترحاب. وفي الحقيقة فإن ظنّ هؤلاء العلماء البيزنطيين قد خاب إذ رأوا ما تتسم به عادات الايرانيين من بربرية وشاهدوا فظاعة الاضطهاد التي تتصف به معاملة الطبقة السائدة عامة الايرانيين فغادروا البلاد ساحطين. ومع ذلك فقد تبنّى كسرى مطالبهم وتمكّن عند عقد معاهدة السلم الساسانية-البيزنطية من الحصول على حقهم في حرية العودة إلى وطنهم⁷.

إن ما يدخله كريستنسن ضمن روح تسامح كسرى لا يعني في الحقيقة غير دهاء سياسي. والواقع الحالي في القرن العشرين يثبت أن قوة عظمى قد تدافع عن حريات مواطني خصمها السياسي من دون أن يكون ذلك اعتناقا منها لطريقة تفكيرهم أو تعبيرا عن روح التسامح التي لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تقاس إلا على اساس مدى ما يتمتع به مواطنوها هي من حريات. ومع ذلك فالذي لا جدال فيه هو بعد نظر كسرى أنو شروان السياسي. لقد كان عليه أن يقاوم الهيطل في الشرق و الهيطل البيض في الشمال

والبيزنطيين في الغرب وفي اليمن والعرب البدو على حدوده الجنوبية. وإعلان الحرب في كل هذه الجبهات أمر لا يدل على بعد نظر سياسي لذلك رأى أن يواصل دفع أتاوة للهيكل وأن يتفرغ لحرب الروم حتى تتاح الفرصة لضرب الهيكل. ومحاربة الروم تعني محاربة أتباعهم من غساسنة سوريا ومن أحباش اليمن. من هنا كانت سياسته المتمثلة في إعادة توثيق صلاته بالمنذر بن النعمان (موئذر بر نعمن ملك العرب). وعندما اندلعت الحرب من جديد بين الإمبراطوريتين واجتاح سوريا وحرب انطاكية سنة 540 كان ملك الحيرة عضده في هذه الحرب كما كان الحارث بن جبلة الغساني (529-569) عضد جوستينيان. وهكذا اضطر البيزنطيون إلى دفع أتاوة ثقيلة واشتدت العداوة بين الخصمين العربيين التابعين المنذر بن النعمان والحارث بن جبلة واتسع نطاق صراعهما فبدأ اللخميون وكأنهم في وضع الفريسة الواقعة بين الفك الغساني في الشمال والفك الحبشي في الجنوب من دون أن ينجحوا في كسب مضربي قريش الذين اختاروا الحياد إلى صفهم:

كان أبرهة قد أمعن في بلاد معدّ غزرا وتحدث أحد النقوش عن تسلطه على بعض قبائل بني عامر في ديارهم مما يلي اليمن وكانت تمتد حتى تصل إلى بلاد الحارث بن كعب بنجران من جهة الشرق وأن أبرهة قد قام بغزوها في الربيع من شهر ذي ثبتان، إلا أن عمرو بن هند أعطى ورهن من أجلهن الرهن وأبعد خطره عن تلك المناطق التي آل أمرها إلى المنذر الثالث، وتاريخ هذا النقش يوافق 544.⁸

كتب ابن خلدون عن غزو معدّ وعن أسباب تراجع الأحباش نقلاً عن الطبري:

وكان فيما زعموا قد ذهب مع عبد المطلب عمرو بن لعابة بن عدّي بن الرمل سيد كنانة وخويلد بن وائلة سيد هذيل وعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة ويرجع عن هدم البيت فأبى عليهم فانصرفوا. وجاء عبد المطلب وأمر قريشاً بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب للتحرز فيها ثم قام عند الكعبة ممسكاً بحلقمة الباب ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه وعبد المطلب ينشد ويقول في أبيات معروفة:

لا هم أن العبد يمنع
رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم
ومحالفهم أبدا محالك

وانصر على آل الصليب
وعابديه اليوم آلـك

ثم أرسل الله عليهم الطير الأبايل من البحر (يقصد البحر الأحمر) ترميهم بالحجارة فلا تصيب أحد منهم إلا هلك مكانه وأصابه موضع الحجر من جسده كالجدري والحصبة فهلك وأصيب أبرهة في جسده بمثل ذلك، وسقطت أعضاؤه عضوا عضوا وبعثوا بالفيل ليقدّم على مكة فربض ولم يتحرك فنجا، وأقدم فيل آخر فحصب وبعث الله سحابة من حمم فذهب بهم والقاهم في البحر ورجع أبرهة إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فانصدع صدره على قلبه ومات⁹.

إن ما تجدر الإشارة إليه أن حكم المنذر إن بدا في بلاد معدّ بالضعف الذي رأينا معه ابنه الوالي عمرو بن هند يلتجئ إلى ما يشبه دفع الأتاة حتى يقبل أبرهة بالتراجع عن التقدم نحو الشمال فمرد ذلك إلى بعد الحجاز عن مركز الإمارة في الحيرة ووقوع عمرو بن هند بين ضغط الغساسنة وضغط الأحباش. أما في غير هذه المنطقة فستبرز قوة اللخمين بشكل واضح حتى أن المنذر تمكن من أسر ولد للحارث بن جبلة قدّمه قربانا إلى العزّي سنة 544 ففتح للثأر القبلي بابا جديدا لم تحمده الهدنة الساسانية البيزنطية سنة 522 إذ قتل الحارث بن جبلة الغساني في يوم حليلة سنة 554 بحصمه المنذر بن النعمان اللخمي وأسر امرئ القيس بن المنذر فأثار بذلك حمّة أمير الحيرة الجديد عمرو بن هند (554-569) وروح التشفي عند الغسانيين فنظم شعراؤهم في ذلك القصائد ومنهم عديّ بن رعاء الغساني:

دون بصري، قطعة نجلاء
سي ويعيا طبيبها بالدواء
ليذودن سامر الملحاء
جرت الخيل بيننا بالدماء

ربما ضربة بسيف صقيل
وغموس تضلّ فيها يد الآ
رفعوا راية الضراب وآلوا
فصبرن النفوس للطعن
حتى

كان الغسانيون يكون واحدا منهم قدّمه أمير الحيرة قربانا لصنمه وها أن الحيرة تصاب في أميرها القتيل وابنه الأسير. فأبي واجب على الأمير الجديد ابن المنذر اللخمي وهند بنت الحارث الكندية الملقب بعمرو بن هند يمكن أن

9- ابن خلدون، العبر، ج3، ص 119.

يحظى بالأولوية أكثر من واجب الثأر للأب القاتل والأخ الأسير؟ إن المعاهدة التي ستعقد بين كسرى أنو شروان وجستيان سنة 561 ستضمن شروطاً قاسية فرضها الساسانيون على البيزنطيين منها ضرورة مواصلة دفع أتاوة إلى كسرى والإحجام عن تشجيع نشر المسيحية في البلاد الإيرانية كما تتضمن فيما يتعلق بالغسانيين واللخميّين حظراً صريحاً للغزو بين الإماراتين قد يتسبب في نقض الصلح بين الدولتين العظميين مما يشي منذ هذه الفترة المبكرة بتقلص دور الإماراتين في اللعبة السياسية العالمية ولكن هذا الصلح لن تكون لها تأثير في علاقات تابعيها عمرو بن هند والحارث بن جبلة العدائية بعد أن تنزل الثأر منزلة الأولوية في سياسة الإماراتيين الجنوبيّين الأصل.

وفي حين وجه كسرى جهوده كلها إلى مقاومة الهبطل (الخزر) حتى تمكن من القضاء عليهم بين 563 و 567 وإلى القضية اليمنية فبعث بوهرز أحد قواده في جيش من الديلم لاعانة سيف بن ذي يزن على طرد الأحباش¹⁰، كان عمرو بن هند منشغلاً بتجميع القبائل استعداداً للثأر من الغساسنة. وقد انحازت له بعض القبائل الواقعة تحت سلطانه "مثل بكر وبعض تميم والقبائل المتحالفة معه ولكنها لا تدين له مثل بني أسد وطيء وغطفان"¹¹. وتجاهلت دعوته قبائل أخرى كتغلب التي تمنعها عداوتها لبكر من مناصرة أمير تناصره شقيقتها العدنانية. وبهذا انضاف إلى الصراع القحطاني القحطاني ممثلاً في تنوخي الحيرة وغساني بصرى صراع عدناني عدناني ممثلاً في الصراع التغلبي البكري واضطرت تغلب تبعاً لذلك إلى الايغال في الشمال الدجلي-الفراتي يلاحقها غضب عمرو بن هند فترة عليه بروح ثمرد عبر عنها شاعرهما عمرو بن كلثوم:

10- من المدحيات التي قيلت في كسرى أنو شروان في هذه المناسبة، لامية ابن أبي الصلت وقد جاء فيها:

لله درهم من عصية عذبوا	ما أن أرى لهم في الناس أمثالا
بيضاً مرازية غلباً أساوراً	أسداً تربّب في الغيضات أشبالاً
يرمسون عن شذف كائنما غبط	يزمخرون يعجل المرمسي اعجبالاً
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد	أضحى شريدهم في الأرض فللاً
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً	في رأس غمدان دار منك محالاً

11- النجار، المرجع السابق ص ...

أبا هند فلا تعجل علينا
بأننا نورد الرايات بيضا
وايام لنا غرّ طسوال
متى ننقل إلى قوم رحانا
يكون ثفالها شرقي نجد
نزلتم منزل الاضياف منا
قريناكم فعجلنا قراكم
ورثنا الجحد قد علمت معد
ألا لا يجهلن أحد علينا
بأي مشيئة عمرو بن هند
تهددنا وتوعدنا رويندا
فأن قناتنا يا عمرو أعييت
فهل حدثت في جشم بن بكر
ورثنا جحد علقمة بن سيف
ورثت مهلهلا والخير منه
وعتابا وكلثوما جميعا
وذا البرة الذي حدثت عنه
ومنا قبله الساعي كليب

وأنظرنا تخبرك اليقيننا
ونصدرهن حمرا قد روينا
عصينا الملك فيها أن ندينا
يكونوا في اللقاء لها طحيننا
ولهوتهما قضاة أجمعينا
فاعجلنا القرى أن تشتمونا
قبيل الصبح مرداة طحونا
نطاعن دونه حتى يبيننا
فنجهل فوق جهل الجاهليننا
تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
متى كنّا لأملك مقتويننا
على الأعداء قبلك أن تليننا
بنقص في خطوب الأولينا
أباح لنا حصون الجحد ديننا
زهيرا نعم ذخير الذاخرينا
بهيم لننا تراث الأكرميننا
به نحمي ونحمي المحجريننا
فأي الجحد إلا قد ولينا

وقد عمد عمرو بن هند إلى انزال العقاب بتغلب قبل أن يفرغ إلى محاربة
الغساسنة فدفع قانون الثار التغالبة إلى قتله (569) قتلة صاغها الرواة القدامى في
شكل قصصي هو أقرب إلى الاسطورة منه إلى التاريخ. وقد عبر الشاعر
الحارث بن حلزة عن شدة امتحان عمرو بن هند التغالبة:

ثم خيل من بعد ذاك مع الغـ _____ لاق لا رافة ولا ابقاء.
فكيف يمكن من بعد ما سلط عمرو بن هند على تغلب من عقاب "لا رافة ولا
ابقاء" فيه القبول باسطورة المأدبة التي انتهت بمقتل عمرو بن هند؟

لقد تمكن عمرو بن هند بعد فراغه من أمر تغلب من الحاق الهزيمة بالغسانيين من لخم وجذام وعاملة وغسان بل قتل الحارث بن جبلة نفسه (569) وأسر ابنه وأطلق سراح أخيه. قال الشاعر الحارث بن حلزة مفاخرًا بالحدث:

ن فأدنى ديارها العوصاء	إذ أحل الغلاة قبة ميسو
بعد ما طال حيسه والعناء	وفككنا غلّ امرئ القيس عنه
ذر كرها إذ لا تكال الدماء	وأقدناه رب غسان بالمنـ

ولكن هذا الانتصار اللخمي سيدفع الغسانيين بعد عام إلى الانتقام في عين أباغ (570) من اللخميّين إذ ألحق المنذر بن الحارث بن جبلة أمير الغساسنة الجديد (569-582) بجيش قابوس (569-573) أخي عمرو بن هند وأمير الحيرة الجديد هزيمة نكراء. ويبدو أن هزيمة قابوس تعود في جانب كبير منها إلى شخصية هذا الأمير الذي لم يكن يتصف ببعض ما كان يتصف به أخوه من صفات سياسية إذ لم يحظ في نظر من عرفه من العرب المواليين للخميين بتقدير كاف. فهذا طرفه بن العبد يقول فيه:

لعمرك أن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير

قال فيه ذلك بعد أن عاشه مدة نزولا عند رغبة أخيه عمرو بن هند الذي طلب منه ومن الشاعر المتلمّس أن يلزما أخاه (قابوس) وكان فتى لهو وشراب وصيد¹². لذلك سيلجأ كسرى أنو شروان مباشرة إثر موت قابوس إلى تعيين حاكم ساساني (السهرب) على الحيرة (573-574) بدل اللخميّين وإن كان سيعدل بعد ذلك عن قراره فيعيد الحكم إليهم ويعين المنذر بن المنذر (574-578) أخا عمرو بن هند وقابوس على هذه الإمارة.

12- النجار، علاقة.....ص، 72.

على أن ما يجب أن نؤكد عليه هو أن السياسة الساسانية وكذلك البيزنطية قد اتجهتا منذ معاهدة 561 إلى تهميش دوري حلفائهما من اللخميين والغسانيين وستكون السنوات العشرون المتبقية من القرن السادس سنوات ضعف هذين الامارتين فينحسر عن وقائعهما الجانب السياسي العالمي لتتحصص في صراع قبلي بحث هياً الطريق لظهور القوة العدنانية القحطانية المشتركة ممثلة في الدولة العربية الاسلامية.

إن سبعينات القرن السادس تبدو إذن حاشدة بالاحداث فقد قتل الحارث بن جبلة سنة 569 بعد حكم دام 40 سنة كما قتل في هذه السنة نفسها عمرو بن هند. واستولى كسرى على اليمن سنة 570 كما ولد محمد بن عبد الله في هذه السنة. فهذه العشرية هي عشرية التوسع الساساني على حساب بيزنطة وهي عشرية إحساس البيزنطيين بخطل سياسة جوستنيان الذي وجه نظره إلى الغرب وشمال افريقيا فتضاعفت المخاطر المحدقة ببيزنطة في عقر دارها. ومع ذلك فإذا كان الصراع الساساني البيزنطي سيتواصل فإن الدولتين العظميين أصبحتا تحسان أن صراعهما لا يعد شيئاً إذا ما قورن بالخطر التركي على ايران في الشرق والخطر السلافي على بيزنطة في البلقان.

هذا هو في نظرنا سبب تقلص دور الامارتين العربيتين في الحيرة وبصرى ثم تلاشي هذا الدور بداية القرن السابع. وفعلاً فإن البيزنطيين كانوا منذ عهد جستنيان ساحطين على سياسته الغربية فعملوا منذ وفاته (565) على إعادة النظر في هذه السياسة واجتهدوا في تخفيف الضغط الساساني عليهم في المشرق ودفع خطر السلافيين جنوب الدانوب وكان هؤلاء يزحفون نحو البلقان مدفوعين بما يشبه الحاجة الحيوية إلى "الوصول إلى منفذ على البحر الأبيض المتوسط (...). إن عصر جوستنيان قد طرح أسس القضية السلافية في البلقان"¹³.

يبدو حكم جوستنيان في تاريخ بيزنطة بمثابة خطم كان له أبعاد وخيمة إذ عطل تطورا عاديا وضروريا. ففي حين أصبحت الامبراطورية عمليا امبراطورية شرقية

وفي حين نُحِّلَى أباطرة القرن الخامس فعليا عن الغرب رغم ابقائهم على حقوقهم النظرية عليه وضحّوا به في سبيل خلاص الشرق، ولى جوستينيان وجهه منذ بداية حكمه نحو الغرب ووجه طكوحه نحوه أي نحو الماضي وبذل من أجل بعث هذا الجزء الميت من الامبراطورية جهدا بالغاً أنهك الجزء الحي منها.¹⁴

إن ما ورثه جوستين الثاني (565-578) عن سلفه يعتبر بحق كارثة: هدنة ساسانية بيزنطية مشروطة بأتاوة تدفعها بيزنطة لایران وسياسة ايرانية انتهت بوقوع الیمن طریق الهند والصین مصدري استيراد القطن خاصة في الأیدی الايرانية وحدود شمالية يهددها السلافيون وأزمة اقتصادية داخلية تهدد النظام القائم وحصومة دينية حادة بين الارثوذكسية دين الدولة والمونوفيزية دين بعض مقاطعات الدولة، إضافة إلى النسطورية وكذلك بين كبير أساقفة روما وبطريق القسطنطينية. لذلك لم يكن بإمكان جوستين الثاني وهو يتسلم الحكم غير وسيلة واحدة لتطويق الوضع: تعزيز دفاع بيزنطة جنوب الدانوب ومقاومة الهيمنة الساسانية فاجتهد في إثارة القلاقل على حدود كسرى أنو شروان الشمالية بتشجيع القبائل التركية على الإغارة على الامبراطورية الساسانية وفي إثارة القلاقل في أرمينيا النصرانية فاندلعت الحرب من جديد بين الامبراطوريتين سنة 572. وقد تمكن البيزنطيون في بداية الحرب من اجتياح ما بين النهرين ولكنهم هزموا آخر الأمر واضطروا إلى إحداث تغييرات كبيرة في قيادة جيشهم مكنتهم بقيادة موريس الذي سيتولى فيما بعد حكم الامبراطورية من إحراز نصر في بعض المواقع أجبر كسرى أنو شروان على الشروع في مفاوضات سلام وقد مات سنة 579 قبل أن تفضي إلى اتفاق نهائي.

14- المرجع السابق، ص 81.

الفصل السابع

أفول القوتين العظمتين

يمكن اعتبار ثمانيات القرن السادس الميلادي بداية تفتّت نهائي لحق الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية أسفر في النصف الأول من القرن السابع عن قيام الدولة العربية الموحّدة.

لقد خلف تيبير (578 - 582) الأول جوستين الثاني على عرش الامبراطورية البيزنطية فورث عنه وضع لا حرب ولا سلم انتهى باندلاع الحرب من جديد بين الساسانيين والبيزنطيين ثم مات بعد أربع سنوات من الحكم فخلفه القائد موريس (582 - 602) ليتفرّع الى حرب الساسانيين. ولم يكن وضع هؤلاء في الحقيقة أفضل من وضع البيزنطيين اذ فقدت الدولة بموت كسرى أنو شروان (579) شخصية سياسية بعيدة النظر. وقد حاول ابنه هرمز الرابع (579 - 590) أن يسير سيرة أبيه ولكن وضع اليوم لم يعد شبيها بوضع البارحة خاصة في ايران التي تقول القاعدة فيها أنه ما امتدّ حكم ملك من الملوك وهيمن على الدولة والمجتمع الا عقب فترة حكمه فترات ضعف وانحلال. وهكذا فشلت سياسة هرمز في تحقيق سلم ساسانية رومية فعمد هذا الشاه بعد ما لحق جيشه من انكسارات الى تغيير فظ في القيادة العسكرية دفع أحد كبار القادة وهو بهرام الملقّب بالرجل الخشبي (تشوبان) الى اعلان العصيان بل سعى الى الاستحواذ على الحكم.

وقد استغل بعض أفراد العائلة المالكة وضع الفوضى الذي امتدّ في الامبراطورية حتى 590 فأقالوا الامبراطور الشرعي وسملوا عينيه ثم قتلوه ونصبوا مكانه ابنه كسرى الثاني الملقّب بـ "أبرويز" (المتنصر). غير أن القائد بهرام ما لبث أن

زحف على العاصمة المدائن فالتجأ كسرى إلى البيزنطيين طلبا للعون على
حصمه الذي توج نفسه ملكا على البلاد وضرب السكة باسمه.

هكذا قلبت الأحداث في إيران كل التوازنات القديمة ولذلك فإن
الامبراطور البيزنطي موريس استجاب لكسرى أبرويز ومدّه بعون مكنه من
الحاق الهزيمة بالقائد العسكري الايراني المتمرد. وقد تنازل كسرى اعترافا منه
بجميل البيزنطيين عن مدينتي دارا وميافرقين وانقطعت الحرب بين الامبراطوريتين
حتى سنة 602 عندما استغلّ فوكاس الضابط العسكري البسيط في بيزنطة
ظروف انتفاضة اجتماعية وعسكرية فقتل الامبراطور موريس واستولى على
الحكم. كان هذا الحدث مناسبة استغلها كسرى أبرويز لاعلان الحرب على
بيزنطة ثارا لقتل "ولي نعمته" البيزنطي.

هذه الأحداث الغريبة التي حدثت نهاية القرن السادس كان لها تأثير بليغ
سواء على وضع إماراتي الحيرة وبصرى أو على بقية العرب رحّلا كانوا أو
مستقرين.

فالعساسنة في الشمال فقدوا قدرا من الدور السياسي والعسكري الذي يبرّر
وجودهم بعد أن أصبحت العلاقة بين كسرى أبرويز وموريس بالحميمية
الظاهرة على الأقل التي وصفنا ولا اتفاق بين المهتمين بهذه الفترة من التاريخ
حول أسباب فتور العلاقات البيزنطية العساسنة فمنهم من رأى أنها نفسية دينية.

"أظهر ثيبريوس (578-582) رضاه عن المنذر وقلّده التاج الملكي. ولكن الريّة
غلبت على الثقة بعد ذلك فسجن رجال بيزنطة المنذر اما بطريق الخيلة أو الغدر
ونفي الى صقلية. وقد خلفه ابنه ولكن الضعف سوف ينال من الملك العساني
بسبب علاقاته ببيزنطة التي أصبحت تتراوح بين الحذر والغيرة وبين الخيانة والانتقام
فخسرت الامبراطورية الرومانية دعما كم كانت بحاجة إليه بعدما لحقها من عجز
عن صدّ غزوات القبائل العربية وهجمات الفرس"¹.

ففي سنة 580 تقريبا أمر الامبراطور تيسيريوس باعتقال المنذر وإرساله إلى القسطنطينية. وفي سنة 582 - 583 لقي ابنه النعمان من موريس العقاب نفسه. وقد ضعف الملك الغساني نتيجة لذلك أيضا ضعف².

ومنهم من رأى أن فتور العلاقة يعود إلى أسباب أكثر وجاهة أي إلى هذه الأسباب السياسية والمالية التي تدفع الدول الكبرى كلما حدث انفراج في العلاقات الدولية إلى التقليل من دعمها للدول الدائرة في فكلها. ولقد قلل تحسن العلاقات بين ايران وبيزنطة أثناء حكم كل من كسرى أبرويز (590 - 628) وموريس (582 - 602) من أهمية دور بصرى في مرحلة أولى ثم حال الانحرام المالي في الخزينة البيزنطية طيلة الحرب الساسانية - البيزنطية (602 - 628) في مرحلة ثانية دون عودة العلاقات بين الدولة البيزنطية وبين العرب التابعين لهما الى سالف عهدهما :

لم تسدّد بيزنطة للغسانيين منذ سنوات الاعانة المالية المقدرة ذهبا بـ 30.000 "أوريوس"³

ومن المؤكد أن الحروب المكلفة التي خاضها هيراكليوس ضد الفرس قد خربت الامبراطورية⁴. أما وضع العرب الخاضعين للدولة الساسانية فسيكون أكثر عسرا من وضع الفساسنة ذلك أن كسرى أبرويز ما أن تولّى الحكم حتى بادر بتقليص اشراف النعمان بن المنذر اللخمي (580 - 604) على بلاد الخليج وبذلك اتصل الحكم الساساني المباشر على طول الممرّ من اليمن الساسانية الى البحرين الى البلاد الايرانية. ويختلف المؤرخون كذلك في تحديد أسباب فساد العلاقة بين كسرى أبرويز واللخميّين فسادا دفع الشاه الايراني الى قتل النعمان

2- ص 115 - ... Havenith. Les arabes chrétiens nomades

3- أوريوس (Aureus) هو العملة الذهبية الرومانية المتداولة في العصر موضوع الدراسة. وتساوي الوحدة منها سنة 1987 حسب ما ذكر (هافينيث) بين ثلاثة وأربعة آلاف فرنك بلجيكي (انظر ص 114 من المرجع السابق).

4- ص 115 - ... Havenith. Les arabes chrétiens nomades

الثالث سند 604. ولا يمكن للمرء إلا أن يتعجب من بعض الأسباب التي قدمت كتفسير لذلك. وهي تشبه ما فُتدنا من تفسير لفساد العلاقة بين موريس وأمراء بصرى. فهذا كريستنسن على قيمة ما كتب فيما يتصل بتاريخ الساسانيين يكتب :

وكان النعمان الثالث ملك الحيرة الذي اعتنق المسيحية ضحية أخرى من ضحايا مزاج كسرى الحقود. ويقال ان النعمان الثالث لم يطمع أوامر كسرى عندما طلب مصاحبته أثناء هروبه من بهرام تشوبان وأنه رفض أن يزوجه ابنته. وقد أمر في فترة واقعة بين 595 و604 بسجنه ثم بقتله وانتزع في الوقت ذاته الامارة من العائلة اللخمية ليحولها إلى اياس من قبيلة طيء ويعين إلى جانبه مراقبا فارسياً⁵.

ان كريستنسن يدمج في الحقيقة أسبابا ثلاثة ذكرها المؤرخون المسلمون في ما يشبه التفسير لامتحان كسرى النعمان وانتهاء دور اللخمين في الحيرة وهي :

- سبب ديني

- سبب سياسي

- سبب نفسي

وبعض هذه الأسباب ان صحت تدخل في رأينا ضمن العوامل الثانوية اذ أن امكانية اعتناق المسيحية في هذه الفترة المتأخرة التي لم يعد فيها التحول من عقيدة إلى عقيدة أخرى أمرا غير معهود في بلاد الرافدين التي كانت فيها تغلب مثلا مونوفيزية بل كان من يسمون بالعباد مسيحين منذ فترة طويلة لا يمكن اعتباره عاملا حاسما في قرار أبرويز هذا الذي مكّنه الامبراطور موريس المسيحي من تاج ايران.

كما أن ما ذكر من احجام النعمان عن اعانة كسرى أثناء استيلاء بهرام على الحكم يبدو تفسيراً متهافنا اذ كيف أبقي كسرى أبرويز على النعمان طيلة المدة الفاصلة بين 590 و604.

5- ص 447 - Christensen... L'Iran ...

أما السبب الثالث وهو رفض النعمان تزويج ابنته الشاه الفارسي وإن كان يمكن أن يفسر سلوك ملوك الاطلاق الذين يعتبرون الاستجابة لنزواتهم شرطاً لا خلاص تابعيهم، فإنه لا يصلح في ظروف الحرب الطويلة المريعة مبرراً للتخلي عن أنصار قد تكون مساهمتهم في الحرب مصيرية مهما ذكرت المصادر عن كسرى أبرويز من افراط جعله يجمع في قصره 3000 امرأة عدا آلاف الفتيات اللاتي كن يخدمنه أو يغنين له⁶. ثم إن صورة النعمان التي تظهر هنا وكأنها تعبير عن "أنفة" العربي ازاء "الأعجمي" (أي صورة مسيئة) لا تتفق وما تثبتته الصورة الأدبية العربية عن هذا الأمير التنوخي من سلوك يتصل بنظرته إلى العلاقات الجنسية فقد ذكرت بعض الاخبار التي لا تخلو من طابع خرافي كما هو شأن كل الاخبار تقريباً التي تتناول هذه الفترة أن النابغة "كان من أخضاء النعمان فدخل عليه يوماً فجأة ومعه امرأته المتجردة فالتفتت إليه مذعورة فسقط نصيفها فاستترت بيدها وذراعها فكادت ذراعها تسر وجهها لغلظها وكثرة لحمها فامرہ النعمان أن يقول قصيدة يصفها فيها فقال قصيدته التي يقول فيها :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

فوصف منها مواضع لا يليق ذكرها. وكان المنخل اليشكري من ندماء النعمان وكان فاسقا وأما النابغة فكان حفيفاً نقياً فغار من وصف النابغة لها فقال والله لا يقول هذا إلا من جرّب فغضب النعمان وأراد أن يبطش بالنابغة (...). فهرب إلى ملوك غسان بالشام فكان يمدحهم ثم أن النعمان اطلع على ما بين المتجردة امرأته والمنخل من الريبة فقتلها في قصة طويلة فكتب إلى النابغة أنك لم تعتذر من سخطه ان كانت بلغتك ولكننا تغيرنا لكل شيء مما كنا لك عليه ولقد كان في قومك ممتنع وحصن فتركته ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدّي وبني وبينهم ما علمت فقدم اليه (...). وقيل ان النابغة قدم في حوار رجلين من

6- المرجع السابق ص 458.

فزاره لهما منزلة عند النعمان فرأى احدى قيان النعمان فلقتها قصيدته التي
اعتذر فيها وهي :

يا دار مَيّة بالعلواء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد⁷

فالاحدر عندئذ أن نعتبر موقف كسرى أبرويز نابعا من نظرة سياسية محدّدة لا
تأثير كبيرا للعواطف فيها. وتتمثل هذه النظرة في رأينا في فقدان الحيرة دروها
نهائيا بعد أن اختلّت الموازين بين الدولتين العظميين من جديد بعد سنة 602
عندما أحس كسرى أبرويز بقوة كافية مكّنته من اعلان الحرب على بيزنطة
مستغلا حادثة قتل فوكاس (602 - 610) الامبراطور موريس إذ نعتقد أن ردّ
الحرب إلى سعي كسرى أبرويز الى مجرد الانتقام من قاتل "وليّ نعمته" موريس
انما هو أشبه ما يكون بتفسير التحالف الاروبي نهاية القرن الثامن عشر ضد
فرنسا بقتل الملكة ماري أنطوانيت أو الحرب العالمية الاولى بقتل القومي
اليوغسلافي برينسيب Princip عضو الجمعية السرية الوحيدة أو الموت (اليد
السوداء) الارشيدوق النمساوي فرانسوا فرديناند سنة 1914 في سراييفو.
والحال أن العلاقات الدولية تقوم على توازن متعدّد الوجوه يجعل من الأحداث
الجزئية مجرد مبرّرات لمحاولات تغيير هذا التوازن. ولا يمكن انطلاقا من هذا
الفهم للأشياء أن يكون كسرى أبرويز حتى اذا كان قد وصل إلى الحكم بعون
من الامبراطور البيزنطي موريس راضيا عن وضع ينزل امبراطوريته منزلة القوة
التابعة لبيزنطة وذلك في وقت شهد ضغطا متزايدا سلطه البلغار عليها في
الشمال فشلوا قواها في الشرق الادنى كما شهد في شرق الامبراطورية الايرانية
انحلال دولة الاتراك توكيو الذين حلفوا الهياطلة في السيطرة على أوزبكستان
وبلاد الصغد والقرم وبكتريان ثم سقطت دولتهم في فوضى استغلّتها العائلة
الصينيّة المالكة (سو - واي Souei) للهيمنة على كل المنطقة طيلة سبعين سنة.

7- الشنقيطي - شرح المعلقات العشر - ص 157.

هذا هو الوضع العالمي عندما أعلن كسرى أبرويز الحرب على بيزنطة:

- انقشاع ضغط الأتراك على شرق الامبراطورية الساسانية

- اشتداد ضغط السلافيين والبلغار على البيزنطيين في البلقان (الجليل بالتركية).

وهذا هو الوضع الذي سمح لجيوش كسرى أن تبلغ في زحفها مشارف القسطنطينية فتسبب ردود فعل عسكرية وشعبية على حكم فوكاس الضعيف في الدفاع عن الامبراطورية والمتعسف داخليا وفي زحف الارمني هرقل على بيزنطة بأسطول انطلق من قرطاج لينهي حكم فوكاس.

وإذن فعلى المستوى الداخلي لم يكن وضع بيزنطة بأفضل مما كان عليه خارج الحدود فالانقسامات الدينية لم تقلص تأثيرها بل احتد الصراع الديني بين البابا غريغوار الكبير (590 - 604) وبطريك القسطنطينية يوحنا الصائم Jean le Jeuneur عندما سعى هذا الى ادعاء هيمنة دينية لا يبررها وضع بيزنطة الخارجي السيئ والداخلي الاكثر سوءا وفي وقت بدأ فيه ساعد البابوية يشتد تعويضها للفراغ السياسي في ايطاليا عقب استيلاء متبربرين جدد عليها هم اللومبارديون. فهذه الفترة والفترات التي تليها يمكن أن تعد فترة انحطاط حضاري بيزنطي شامل:

تعرضت الحضارة البيزنطية في القرن السابع إلى كسوف حقيقي فلم يعد هناك كتاب ولا مورعون ولا منشآت معمارية كبرى وهيمن الخوف في كل مكان وسكنت الخرافة الأكثر بدائية النفوس. ومع ذلك فإن ما ذكرنا لم يكن علامة دالة على انحطاط مستديم، وإنما كان يدل على أزمة عميقة سيتغير بموجبها وجه الامبراطورية. لقد نشأت هذه الأزمة من فقدان الوحدة الذي طبع علاقات الغرب والشرق بطابع العداء وكذلك من النزاع في الشرق ذاته بين البلاد الارثوذكسية والمقاطعات المونوفيزية. لقد فشل جوستينيان في جهده الكبير من أجل احياء "الروح الرومانية" وكان على الامبراطورية ان تدفع في القرن الموالي لمن طموحاته العنيفة : فتح العرب اُتسرى مقاطعات الشرق، استقرار السلافيين الدائم في شبه جزيرة البلقان، نشأة الدولة البلغارية. إن النتيجة شملت كل الجوانب، الجغرافي والجنسي والاقتصادي والديني والاداري وبذلك تحولت الامبراطورية بشكل حاسم فلم تعد امبراطورية رومانية وإنما أصبحت امبراطورية الشرق الاغريقية⁸.

على أن ما يبدو لنا أكثر أهمية من البحث في أسباب انهاء كسرى حكم
الفرس هو نتائج هذا القرار السياسي الذي أحدث فراغا عربيا ستتأزم نتيجة
له العلاقات بين الدولة الفارسية وبدو الخليج بصفة خاصة وستصل حدّ الصدام
المباشر في ما سمي بوقعة ذي قار (611) التي ذكر أن النبي محمد قال عندما بلغته
أنبأؤها "اليوم انتصفت العرب من العجم وبني نصرورا" والتي اضطر كثير من
المؤرخين حفاظا على هذا الحديث المنسوب الى النبي وحرصا على المنطق
التاريخي إلى ادراجها ضمن أحداث ما بعد الهجرة (622).

كتب ابن خلدون متحدّثا عن فساد العلاقة بين الايرانيين وعرب الخليج أساسا:

وولى (كسرى أبرويز على الحيرة) اياس بن قبيصة (الطائي) فلم تستقم له طاعة
العرب (من بكر وقيم وعبس) لقتل النعمان⁹.

وكتب:

ورفد حاجب بن زرارة من بني قميم على كسرى في طلب الانتجاع والميرة بقومه
في أرياف العراق فطلب الاساورة منه الرهن على عاداتهم فأعطاهم بقوسه واستكبر
عن اسرهمان ولده¹⁰.

ويكاد المرء يستغني عن القول ان قبيلة كبيرة كتغلب المعادية لاحتها بكر ستوثق
علاقاتها بكسرى أبرويز حالما تفسد العلاقة بينه وبين بكر وقيم وستكون في
صف كسرى وطيء وذبيان في الوقعة المذكورة.

ان هذه الوقعة التي ضخمت الايديولوجيا الاسلامية ومن ثم القومية (لا
يمكن في نظرنا الفصل بين الاسلامية والقومية اذ الاسلام في منشئه دين قومي)
تأثيرها (رغم أن الصراع فيها لم يكن ايرانيا عربيا بحثا بل كان كذلك عربيا -
عربيا) انما تدلّ في الحقيقة على بلوغ التفتت العربي منتهاه حتى أن غطفان
المضرية التي تقع منازلها في نجد انقسمت على نفسها فاذا أحد بطونها¹¹ وهو

9- ابن خلدون... العبر، م 3، ص 567.

10- المرجع السابق ص 708.

11- يتوزع النسب العربي البدوي تنازليًا كالتالي : 1 (- الشعب 2) - الحي 3 (- القبيلة 4
(- الفصيلة 5) - العمارة 6 (- البطن 7) - الفخذ.

ذبيان يربط مصيره بطيء والساسانيين في حين اتجه أكثر بطونها نفوذاً وهيمنة وهو عبس اتجاهها معاكساً فحالف ثيما وبكراً.

ان ما يدفعنا الى التشديد على فكرة التفتت في هذه الفترة هو ملاحظة الانحرام في مختلف مظاهر الحياة العربية ومنها المظهر العقدي. لقد انقسم العرب دينياً كما انقسموا سياسياً وتوزعوا بين اليهودية والمسيحية والوثنية ولكن هذا الانقسام لم يعد قادراً على تحقيق الطمأنينة الدينية فغلبت الحيرة على الناس وهيمن نوع من التهيؤ لقبول دين وطني يميز الجماعة العربية عن غيرها من الاجناس واذا كان جزء من عرب المدينة قد تهودوا فمكثهم هذا الدين من الارتقاء الى حساسية العصر التي تجاوزت عبادة الاصنام وما شابه الاصنام في كثير من مناطق العالم القديم شأنهم في ذلك شأن غساسنة الشام النصرانيين وقبائل أخرى ككلب في دومة الجندل وتبوك أو عدنانني ربيعة كتغلب فان جزءاً كبيراً من العدنانيين خاصة كانوا يعيشون انحلالاً في عقائدهم الوثنية القديمة مسّ مثقفهم وجهلتهم على حدّ سواء. وتذكر الاخبار المتعلقة بالموضوع فقدان الاوثان هيبتها في هذا العصر الذي كان يتجه في شبه حتمية الى مزيد من التجريد أي الى الديانات التوحيدية قال ابن اسحق:

وكان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمه بن مدركة بن الياس بن مضر صنم يقال له سعد، صخرة بفلاة من أرضهم طويلة فأقبل رجل من بني ملكان بابل له مؤبلة (تأخذ للقنية) ليقفها عليه الشمس بركته فيما يزعم، فلم رآته الأبل، وكانت مرعية لا تركب، وكان يهرق عليه الدماء، ففرّت منه فذهبت في كل وجه، وغضب ربها الملكاني، فأخذ حجراً فرماه به، ثم قال : لا بارك الله فيك ففرت عليّ ابلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت قال :

أتيننا الى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد الا صخرة بتنوفة من الأرض لا تعدو لغى ولا رشد¹²

12- ابن هشام السيرة النبوية، ج 2، ص 87.

أما قصة حنيفة بن لجيم من بكر العدنانية مع معبودها فهي أكثر دلالة على ما لحق الديانة الوثنية من هوان إذ "كان لهم صنم يعبدونه فلحققتهم بجاعة في بعض السنين فأكلوه وكان مصنوعا من الخلوى والسمن والعسل"¹³.
فلا غرابة والحال على ما وصفنا أن يلحق عقائد الوثنية حتى في مكة ما لحق عقائد بقية العرب الوثنية في مناطق أخرى من الجزيرة العربية. كتب ابن خلدون يصف حيرة بعض المثقفين القريشيين :

اجتمع (...) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وعثمان بن الحويرث بن أسد وزيد بن عمرو بن نفيل من بني عدى بن كعب عم عمر بن الخطاب وعبد الله بن جحش من بني أسد بن خزيمه وتلارموا في عبادة الاحجار والاوثن وتواصوا بالنفر في البلدان بالتماس الحنيفة : دين ابراهيم نبيهم.
فأما ورقة فاستحكم في النصرانية وابتغى من أهلها الكتب، حتى علم من أهل الكتاب. وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه، حتى جاء الاسلام فأسلم وهاجر الى الحبشة فتصّر وهلك نصرانيا. وكان يمر بالمهاجرين بأرض الحبشة فيقول : "فتحنا وصاأتم، أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر مثلما يقال في الجرو اذا فتح عينيه فقح، واذا أراد ولم يقدر صاأا. وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فيصّر وحسنت منزلته عنده وأما زيد بن عمر فلم يدخل في دين ولا اتبع كتابا واعتزل الاوثن والذباح والميثة والدم.
ونهي عن قتل الموزودة وقال : أعبد رب ابراهيم. وصرّح بعيب آلهتهم وكان يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك لعبدتك، ولكن لا أعلم. ثم يسجد على راحته"¹⁴.

واذا كان هذا هو موقف كثير من مثقفي العرب وحتى عامتهم فمن السهل أن نتصور شأن النبي محمد وهو الذي جمع من الصفات ما مكّنه من توحيد العرب على أساس ديني ومكنهم من دولة اتسعت فشملت شعوبا عديدة وحدثت تغييرا في مسار التاريخ العالمي.
كان النبي محمد في حدود سنة 610 قد بلغ الأربعين من العمر وتحسّدت صفاته الجسدية والعقلية والنفسية المترابطة فيما بينها ترابطا وثيقا - وصفه علي رفيقه وابن عمه وأحد ممثلي هذا الجيل الجديد وليد بدايات القرن السابع كالتالي :

13- كحالة ... معجم قبائل العرب، ج 1، ص 313.

14- ابن خلدون ... العبر، 3، ص ص 707 - 708.

لم يكن بالطويل الممتط (الممتد) ولا القصير المتردد. وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجد القطط (الشديد جمودة الشعر) ولا السبط. كان جعدا رجلا (مسرّح الشعر) ولم يكن بالمطهم (العظيم الجسم) ولا المكثم (المستدير الوجه في صغر) وكان أبيض مشربا، أدعج (الاسود العينين) العينين، أهدب (طويلها) الاشفار، حليل المشاش (عظام رؤوس المفاصل) والكند (ما بين الكتفين) دقيق المسربة (الشعر الذي يمتد من الصدر إلى السرة)، أجرد (القليل شعر الجسم)، شت (الغليظ) الكتفين والقدمين، اذا مشى تقلع (لم يثبت على قدميه) كأنما يمشي في صلب (ما انحدر من الأرض). واذا التفت التفت معا بين كتفيه نحام النبوة¹⁵.

وكان في هذه السنة ذاتها (610) التي كساد العالم القديم يشرف فيها على الانهيار قد أعلن دعوته في نطاق ضيق لا يتجاوز الأقرباء والمقربين. وستعرف هذه الدعوة أطوارا معروضة في الكتب ليست من غرض هذا الكتاب.

15- ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 42.

ما يشبه الخاتمة :

قوى تولد وأخرى تموت

عندما ظهر اسطول هرقل الصغير في الأفق البيزنطي أعان البيزنطيون هذا القائد الارمني على اسقاط العسكري فوكاس فتسلم ابن حاكم قرطاج الحكم (610 - 641) ولكنه لم يتمكن في البداية من الحيلولة دون تنامي الانتصارات الساسانية على البيزنطيين.

وقد سعى منذ تولي الحكم الى البحث عن حلّ لمعضلة الصراع العقدي الذي كان يفرّق بين الدولة الأرثوذكسية ورعاياها المونوفيزيين في سوريا ومصر فأحدث مذهباً جديداً ذا غاية توفيقية يقول بالارادة الواحدة (Monothélisme) أي أن للمسيح ارادة واحدة وطبعتين. غير أن هذا المذهب الجديد لم يحظ بتأييد يذكر فقد حارب المونوفيزيون هذا المنحى التوفيقى ولم يتبنه في نهاية الامر غير بعض رجال البلاط وبعض الأرمن واللبنانيين ممن سيعرفون فيما بعد بالمارونيين (نسبة الى مار أي القديس مارون) : هذا الفشل في السعي الى تحقيق الوحدة الدينية انضاف اليه كما سبق أن ذكرنا فشل في الحدّ من الضغط الساساني على بيزنطة اذ تنالت انتصارات كسرى أبرويز فاستولى سنة 614 على فلسطين وبلغت القوات الساسانية أقصى حدود آسيا الصغرى فكانت القسطنطينية سنة 616 في وضع المدينة المحاصرة شمالاً من البلغاريين وجنوباً من الساسانيين بل ان مصر ذاتها، هذه المقاطعة البيزنطية الافريقية جغرافياً على الأقل، ستسقط في أيدي الساسانيين سنة 619 وستبقى في أيديهم حتى مقتل كسرى أبرويز سنة 628 والخضوع التوازن نهائياً لصالح هرقل ودخول الامبراطورية الساسانية حالة النزاع الاخير الذي عبّر عنه سياسياً حوالي اثني عشر

ملكاً على المدائن في ظرف أربع سنوات (628 - 632). لقد تسبب هذا الوضع في حدوث فراغ كبير: ففي مصر رتب المونوفيزيون بالساسانيين نكالة في بيزنطة الارثوذكسية وفي فلسطين استغل اليهود فرصة اندحار البيزنطيين وهيمنة الساسانيين طيلة الفترة 614 - 628 ليعلموا تمردهم على الدولة البيزنطية سنة 614. ولولا انتصار الدولة العربية الاسلامية اثر اندحار الفرس وحمايتها لاهل الكتاب لكان بإمكان البيزنطيين أن يعرضوا اليهود لامتحان من شأنه أن يهدد وجود هذه الملة ذاته¹.

وفي هذه الفترة التي أفل فيها نجما اماراتي الحيرة وبصري ستنشأ نتيجة لما يشبه القانون الطبيعي الذي يقول انه متى حدث فراغ في الجزيرة العربية وحواشيتها برزت قوة جديدة تعويضية (أقول دور البتراء ونشأة امارة تدمر / أفول دور تدمر ونشأة امارة الحيرة...) قوة جديدة عدنانية (المهاجرون) قحطانية (الانصار) هي نواة الدولة العربية الاسلامية.

لقد استنجد النبي محمد بالقحطانيين في المدينة فنصروه (622) هم والقلة القليلة من العدنانيين في هذه الفترة التي بلغت فيها الهزائم البيزنطية أشدها وكثر التساؤل حول مصير الامبراطورية البيزنطية وانقسم الناس الى مؤيدين للساسانيين ومؤيدين للبيزنطيين ومنهم النبي محمد كما ثبت ذلك الآيات الأولى من سورة الروم :

الم. غلبت الروم في أدنى الأرض² وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون³.

1 - ص 51 - Histoire du Judaïsme, 1968. - André Chouraqui .

2- أدنى الأرض : جنوب الشام.

ولقد كانت القراءة القرآنية للأحداث هي القراءة الصحيحة إذ تمكّن هرقل من قلب الموازين بداية من سنة 622 ومن استعادة آسيا الصغرى ودحر الجيوش الساسانية في أرمينيا (625) وأذربيجان ثم تمكّن سنة 628 من محاصرة المدائن نفسها فهرب كسرى أبرويز من العاصمة ليلقى مصرعه اثر تمرد سببته هذه الهزائم الساسانية المتتالية ... ولكن هل خرج هرقل منتصرا حقيقة بعد هذه الحرب التي أتت على قوى القوتين العظميين ؟

أن هذه الأحداث هي التي تفسّر سعي العرب بقيادة النبي محمد منذ نهاية العقد الثالث من القرن السابع الى السيطرة على الشام بعد أن تبدّى ضعف الدولتين لعيني النبي السياسيتين الثابنتين فكانت غزوة قرية مؤتة (629) في الكرك (الأردن حاليا) التي إن انتهت بالفشل (مقتل القادة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحه) فقد دلّت على أن أنظار العرب بدأت تتّجه منذ هذه الفترة الى خارج الجزيرة العربية. ولقد تمكّنوا فعلا بعد موت نبيهم الديني وقائدهم السياسي من تأسيس دولة هاشمية عبثية لم يمه دورها في القرن العاشر غير خصومهم القدماء ممثلين أولا في الايرانيين ومنهم بنو بويه ثم في الاتراك بعد ذلك : ولقد حقّق هؤلاء هذه المرة ما عجز عنه أجدادهم من الـ (تو - كيو) (ق. 6-8) والـ (اويغور) (745 - 840) إذ سيطروا على المنطقة السلاجقة (ق 11-13) ثم العثمانيون حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

المصادر والمراجع

بالعربية.

- ابن خلدون (عبد الرحمن) كتاب العبر، م 3، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1977.
- ابن هشام السيرة النبوية، ج 2، القاهرة، مطبعة الحلبي وشركاه، 1936.
- حتّي (فيليب) خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، بيروت، الدار المتحدة للنشر، ج 1، 1975.
- الشرفي (عبد المجيد) الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع (الباب الأول)، تونس، الدار التونسية للنشر، 1986.
- الشلقيطي (أحمد بن الأمين) شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، بيروت، دار الكتاب العربي، 1992.
- كحالة (عمر رضا) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، دار العلم للملايين، ج 1، 1968.
- النجار (أحمد مختار) علاقة أمراء الخيرة بعرب شبه الجزيرة كما يصورها الشعر، القاهرة، دار النهضة العربية، 1979.

بالفرنسية.

- BABELON, Jean Impératrices syriennes, Paris, A. Michel, 1959.
- CHATELET, François Histoire des idées politiques, Paris, P.U.F, 1982.
et autres
- CHOURAQUI, André Histoire du judaïsme, Paris, P.U.F, 1968.

- CHRISTENSEN**, Arthur
L'Iran sous les sassanides, Conpenhague, Levin et Munsksgaard, Enjar Munskgaard, 1939.
- DIEHL**, Charles
L'Afrique Byzantine, Histoire de la domination byzantine en Afrique (553-709) vol. 1, New York, B. Franklin, sd.
- CASTELLAN** Georges
Histoire des Balkans (XIV-XX siècles) Paris, Fayard, 1992.
- DRIOTON** Etienne et
VANDIER Jacques
L'Egypte des origines à la conquête d'Alexandre, Paris, P/U/F, 7ème éd., 1989.
- ENGEL**, Jean-Marie
L'Empire romain, Paris, P.U.F, 1980.
- FURON** Raympnd
L'Iran, Perse, Afgahanistan, Paris, Payot, 1951.
- GAUDFROY- DEMOMBYNES**
et autres
L'Islam et la politique contemporaine, Paris, F. Alkan, 1929.
- HAVENITH** Alfred
Les arabes chretiens nomades au temps de Mohamad, Louvain La Neuve, C.H.R, 1988.
- LAROUI**, Abdallah
Histoire du maghreb. Un essai de synthèse 2 tomes, Paris, Petite collection Maspero, t.1, 1976.
- LEBON** Gustave
La civilisation des arabes, Syracus, Imag, 1959.
- LEMERLE**, Paul
Histoire de Byzance, Paris, P.U.F, 1956.
- RICHE** Pierre et
LEMAITRE Philippe
Les invasions barbares, Paris, P.U.F, 1983.

RONDOT Pierre

Les chretiens d'orient, Paris, J. Peyronnet
et Cie, 1955.

TUBIANA J. et autres

Mer rouge, Afrique Orientale, Paris, J.
Peyronnet, 1959.

WATT Montgomery

Mahomet et la Mecque, Paris, Payot,
1958.

Mahomet à Medine, Paris, Payot, 1959.

يتناول هذا الكتاب تطور وضع العرب من القرن الثالث الميلادي إلى قيام الدولة العربية الإسلامية...

لقد كانت الدول الساسانية والرومانية والحشية، وإن بدرجات متفاوتة، هي القوى العظمى طيلة هذه الفترة... غير أن الحروب المتواصلة بين الساسانيين والرومان ثم البيزنطيين انتهت في القرن السابع إلى حالة نزيف ذهب بقوى القوتين العظميين جميعاً ورافق هذا النزيف حيرة عقيدة رشحتهما إلى ما يشبه المنزع الأخير في حين شهد العرب في قات الوقت ولادة وحدة قومية دنية مكتمل من ملء هذا الفراغ العالمي فأسسوا لهم دولة عربية إسلامية دامت ثلاثة قرون...

محمد الناصر النفزواني

أستاذ مساعد بكلية الآداب 9 أبريل تونس..
صدر له:

- رواية "المشابهون"، دار الحوار (سوريا 1987).
- "محمد كره علي، المعتقد وقضية الولاء السياسي"، دار الجنوب (تونس 1993).